علماء النحو

بسم الله الرحمن الرحيم

علماء النحو

د. محمد غياث المكتبي عبد الرزاق كيلو

دار المكتبي

الطبعة الأولى

2017 - 1438

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الإلكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي.

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - الشارقة - القاهرة
دمشق هاتف: 00963112248433 فاكس: 00963112248432 ص.ب: 31426
الشارقة هاتف: 0097165512262 فاكس: 0097165512264 ص.ب: 3309
Email:almaktabi@gmail.com
www.almaktabi.com

أبو الأَسود الدُّؤليُّ
واضع علم النحو
(. . . ـ 69هـ)

أبو الأَسودِ الدُّؤليُّ، واضعُ علمِ النَّحوِ، وأوَّلُ مَنْ وَضعَ النّقاطَ عَلى الأَحرفِ العربيَّةِ، ونَقَّطَ حروفَ القُرآنِ الكريمِ، مِنْ عُلماءِ الأُمَّةِ المَشهورينَ في مَجالِ اللُّغةِ العربيَّةِ، ومِنَ السَّابقينَ الأَوَّلينَ الَّذِيْنَ ضَبطوا قَواعدَها، وأَشادوا بُنيانَها وفقَ أُسُسٍ علميَّةٍ حَفظَتْها مِنَ الضَّياعِ والاندثارِ واللَّحنِ.

لَقَدِ اهتَّمَ أَبو الأَسودِ الدُّؤليُّ بِاللِّسانِ العربيِّ المُبينِ، وبِلغَةِ العربِ، لُغةِ القُرآنِ الكريمِ، وذَلكَ عندَما شاعَ اللَّحنُ في اللَّفظِ والكلماتِ العربيَّةِ، وفي قِراءَةِ القُرآنِ الكريمِ، وخاصَّةً مِنْ قِبلِ الأَعاجمِ الَّذِيْنَ اندمَجوا في المجتمعِ العربيِّ الإِسلاميِّ بعدَ انتشارِ الإِسلامِ في كافَّةِ أَنحاءِ الجزيرةِ العربيَّةِ، وفي العراقِ، وبِلادِ فارس؛ فَقَدْ كانَ هُناكَ عَددٌ كبيرٌ مِنَ المَوالي والأَحباشِ والفرسِ الَّذِيْنَ أَسلموا لا يُجيدونَ النُّطقَ العربيَّ السَّليمَ، ويُلحنونَ ويُخطئونَ أَثناءَ قراءَتِهِمْ أَو تِلاوتِهِمْ لآياتِ القُرآنِ الكريمِ، فَدعا هذا الأَمرُ، أَبا الأَسودِ الدُّؤليَّ إِلى وَضعِ قَواعدَ مَضبوطةٍ تُمكِّنُ النَّاسَ مِنَ النُّطقِ العربيِّ القَويمِ، ومُراعاةِ حركاتِ

الإعرابِ مِنْ رَفعٍ ونَصبٍ وجَرٍّ وتنوينٍ، وإلى تَقسيمِ الكلامِ إلى حرفٍ وفعلٍ واسمٍ، وإلى بيانِ حالةِ الكلمةِ ـ سواءٌ كانَتْ حرفاً أَو فعلاً أو اسماً ـ مِنْ بناءٍ أَو إعرابٍ.

كما أَنَّ اختلافَ لَهجاتِ العربِ في القِراءَةِ واللَّفظِ والكلامِ، أَدَّى إلى شُيوعِ اللَّحنِ، والوقوعِ في الأَخطاءِ اللُّغويَّةِ والنَّحويَّةِ الَّتِي تُشَوِّهُ اللَّفظَ العربيَّ القويمَ، واللُّغةَ الفُصحَى الَّتِي تَنزَّلَ بِها البَيانُ الإلَهيُّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 2].

وهذا ما حَدا ـ أَيضاً ـ بِأَبي الأَسودِ الدُّؤليِّ، إلى المُسارعةِ في وَضعِ قَواعدِ النَّحوِ حِفاظاً عَلى اللُّغةِ العربيَّةِ الفُصحَى الَّتِي تَجمعُ بينَ جَميعِ لَهجاتِ العربِ.

كانَ «أَبو الأَسودِ الدُّؤليُّ» عالِماً فَذّاً في اللُّغةِ، ومُقرئاً نادراً لِلقُرآنِ الكريمِ، ومُحدِّثاً حافِظاً لِلسُّنَّةِ الشَّريفَةِ، ومُفسِّراً ثَبتاً مُحقِّقاً لِمعاني الآياتِ، وشاعراً مَرموقاً ومُخضرماً، عَدَّهُ المُؤرِّخونَ مِنَ الطَّبقَةِ الأُولَى مِنْ شُعراءِ الإسلامِ المُخضرمينَ، وكَثيراً ما احتجَّ عُلماءُ اللُّغةِ الَّذِيْنَ أَتَوا بَعدهُ بِشعرِهِ في تَفسيرِ معاني اللُّغةِ، أَو في بيانِ غَامضِها، أَو في إعرابِ مُشكلِها.

كَما كانَ مُعلِّماً، ومُدرِّساً بارعاً لِلُّغةِ العربيَّةِ ونَحوِها، شَهدَ لَهُ بِعلوِّ كعبِهِ في هذا المَجالِ عُظماءُ الصَّحابةِ، والخُلفاءُ الرَّاشدونَ الَّذِيْنَ عاصرَهُمْ بَعدَ إسلامِهِ، كما كانَ لِصُحبَتِهِ الإمامَ عَليّاً بنَ أَبي طالبٍ رضي الله عنه أَثرٌ كبيرٌ في نُبوغِهِ ونُموِّ مَعارفِهِ الدِّينيَّةِ واللُّغويَّةِ، حيثُ لازمَهُ فترةً طَويلةً مِنْ حياتِهِ، وكانَ مِنْ أَنصارِهِ وشيعَتِهِ الَّذِيْنَ دافَعوا عَنهُ بَعدَ اسْتشهادِهِ.

إضافةً إلى ذَلكَ، كانَ «أبو الأَسودِ الدُّؤليُّ» كاتِباً ماهراً، مِنْ أَشهرِ الكُتَّابِ في عَصرِهِ الَّذِيْنَ أُسندَتْ إليهِمْ هَذِهِ الوَظيفةُ في قُصورِ الولاةِ والحُكَّامِ؛ يُباشرونَ كتابَةَ الأَوامرِ والرَّسائِلِ مِنَ الولاةِ إلى الخُلفاءِ والعُمَّالِ.

ووليَ إمارَةَ البصرَةِ في عَهدِ أَميرِ المُؤمنينَ عَليٍّ، وذَلكَ تَتويجاً لِنزاهتِهِ ونجاحِهِ في الأَعمالِ الإداريَّةِ، ولإِخلاصِهِ في ولائِهِ لِخليفَةِ المُسلمينَ. كما كانَ فارساً شُجاعاً مُهاباً يُجيدُ فنونَ الحربِ والقِتالِ، وإدارةَ الجُندِ في ساحةِ المَعركةِ، ولِهذا ولاهُ خليفةُ المُسلمينَ عَليٌّ إمارةَ الجُندِ في حربِ الخَوارجِ في العراقِ، فَحَقَّقَ عليهِمُ الانتصارَ تُلوَ الانتصارِ، وأَنهَكَ جيوشَهُمْ، وأَضعفَ قُوَّتَهُمْ ونُفوذَهُمْ بَعدَ أَنْ كانوا يُمثِّلونَ أَعظمَ قُوَّةٍ انشَقَّتْ عَنِ المُسلمينَ، وخَرجَتْ عَنْ طاعةِ الإمامِ، بعدَ قُبولِهِ لِلتَّحكيمِ مَعَ والي الشَّامِ «مُعاويَةَ بنِ أَبي سَفيانَ».

ويُمكنُنا بِاختصارٍ، عَدُّ «أَبي الأَسودِ الدُّؤليِّ» أَوَّلَ مَنْ أُسندَتْ إليهِ رِيادَةُ تَعليمِ اللُّغةِ العربيَّةِ في المُجتمعِ العَربيِّ الإسلاميِّ، وتَهذيبُها وتَنقيحُها وضَبطُها، فَتخرَّجَ عَددٌ كبيرٌ مِنْ عُلماءِ الأُمَّةِ عَلى يَديهِ، ودَشَّنَ بَعدَهُ مَجالاً واسِعاً لِلعُلماءِ يُقيمونَ عَلى أَرضِهِ فُروعاً شَتَّى مِنْ عُلومِ اللُّغةِ العربيَّةِ وفُنونِها.

يقولُ الجاحِظُ: «أبو الأسودِ معدودٌ في طبقاتٍ منَ النَّاسِ، وهوَ في كلِّها مُقدَّمٌ مأثورٌ عنهُ الفَضل في جميعِها، كانَ معدوداً في التَّابعينَ والفُقهاءِ والشُّعراءِ والمحدِّثينَ والأشرافِ والفُرسانِ والأُمراءِ والدُّهاةِ والنَّحويينَ والحَاضِري الجَوابَ والشِّيعةِ».

فَمَنْ هوَ «أَبو الأَسودِ الدُّؤليُّ»؟ وأَينَ عاشَ؟ وما هيَ أَهمُّ أَحداثِ حياتِهِ؟ هذا ما سَنعرفُهُ في هَذِهِ الصَّفحاتِ التَّاليَةِ.

❋ ❋ ❋

يُعتبرُ «أَبو الأَسودِ الدُّؤليُّ» مِنَ الرَّعيلِ الأَوَّلِ مِنَ التَّابعينَ، مِنَ الطَّبقَةِ الأُولَى الَّتِي أَعقبَتْ طَبقةَ الصَّحابَةِ مُباشرَةً، ومِنَ المُؤرِّخينَ مَنْ يَعتبرُهُ مِنْ طَبقةِ الصَّحابَةِ، ولَكنَّ القسمَ الأَكبرَ مِنهُمْ يَعتبرونَهُ تابعيّاً؛ لأَنَّهُ أَسلمَ في حياةِ الرَّسولِ الكريمِ ﷺ، غيرَ أَنَّهُ لَمْ يَرَهُ ولَمْ يَروِ عنهُ، حيثُ إنَّ الصَّحابيَّ هوَ مَنْ أَسلمَ في حياةِ الرَّسولِ الأَعظَمِ، ورآهُ وسَمعَ منهُ بَعدَ إِسلامِهِ.

يُنسَبُ «أَبو الأَسودِ الدُّؤليُّ» إِلَى بَني «دُؤل» مِنْ قَبيلَةِ «كِنانةَ»، وقِيلَ: بَني «ديل». و«الدُّؤلُ» كما يَذكُرُ «الأَصمعيُّ» هوَ «الدِّيلُ بنُ بَكرِ بنِ كنانَةَ»، واسمُ «أَبي الأَسودِ الدُّؤليِّ» هوَ: ظالمُ بنُ عمرو بنِ سَفيانَ بنِ جَندل بنِ يَعمرَ بنِ حلسِ بنِ نَفاثَةَ بنِ عَديِّ بنِ الدِّيلِ بنِ بكرِ بنِ كنانَةَ الكِنانيُّ الدَّيليُّ، وهوَ مَشهورٌ بِكنيَتِهِ «أَبي الأَسودِ».

وُلدَ في «الكوفَةِ» قبلَ هجرةِ المُسلمينَ مِنْ مَكَّةَ إِلى المَدينةِ بِـ (16) عاماً، ونَشَأَ وتَرعرعَ فيها، ومِنْ ظاهرِ حياتِهِ ـ كما رَواها المُؤرِّخونَ ـ يَتَّضحُ لَنا أَنَّ والدَهُ «عمرو بنَ سَفيانَ» كانَ مِنْ أَشرافِ قَومِهِ، ومِنْ فُضلاءِ عَشيرتِهِ بَني الدِّيلِ، أَمَّا أُمُّهُ فَهيَ مِنْ أَشرافِ بَني عبدِ الدَّارِ، كما جاءَ في كتابِ «الأَوائِلِ» لأَبي هلالٍ العَسكريِّ، فَهيَ عربيَّةٌ قُرشيَّةٌ؛ لأَنَّ عَبدَ الدَّارِ هوَ ابنُ قُصَيٍّ الَّذِي هوَ جَدُّ «بَني هاشمٍ» آلِ الرَّسولِ الكريمِ ﷺ، فَيقالُ لِجدِّ

النَّبيِّ ﷺ: عبدُ المُطَّلبِ بنُ هاشمِ بنِ عبدِ مُنافِ بنِ عَبدِ الدَّارِ بنِ قُصَيٍّ. ولِهذا يُعتبرُ «أَبو الأَسودِ الدُّؤليُّ» خالصَ النَّسبِ العربيِّ مِنْ جِهةِ أَبيهِ، ومِنْ جهةِ أُمِّهِ عَلى السَّواءِ.

كانَتْ مدينةُ الكوفَةِ في تِلكَ الأَثناءِ، عندما تَرعرَعَ فيها «أَبو الأَسودِ الدُّؤليُّ»، مِنْ أَهمِّ حواضرِ العراقِ، ومُلتَقَى القَبائِلِ العربيَّةِ مِنْ بَني «كنانةَ» الَّتِي نَزحَتْ مِنْ أَرضِ نَجدٍ ونزلَتْ فيها لِخصوبَةِ أَرضِها وغزارةِ مائِها، وكانَتْ عامرةً بِالحقولِ والمَزارِعِ والبَساتينِ، وكانَ لَها أهميَّةٌ تاريخيَّةٌ ودينيَّةٌ عندَ أَهلِ العراقِ وَقتئذٍ ويُطلقُ عليها مَدينة «نوحٍ»، وفي موضعٍ منها كانَ التَّنورُ المَذكورُ في قِصَّةِ طوفانِ نَوحٍ عليه السلام: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [يونس: 40].

وقيلَ: إِنَّ فيها موضعاً كانَ مُتعبَّدَ إِدريسَ عليه السلام، وهوَ المكانُ الَّذِي أُقيمَ فيها محرابُ جامعِها الكبيرِ الَّذِي بُنيَ بَعدَ دُخولِ المُسلمينَ إِليها، بَناهُ سَعدُ بنُ أَبي وَقَّاصٍ، وفيهِ قُتلَ خَليفةُ المُسلمينَ «عَليٌّ» عَلى يَدِ ابنِ ملجمٍ الخارجيِّ.

في هذِهِ المدينةِ العامرةِ بِالخيراتِ، والحافلَةِ بِالأَسرارِ والأَحداثِ، نَشأَ «أَبو الأَسودِ» مُكباً عَلى العلمِ، مُهتَمّاً بِاللُّغةِ العربيَّةِ، دائِباً عَلى حفظِ الشِّعرِ، وحكمةِ العربِ، فَكانَ نُبوغُهُ ونُضوجُهُ العلميُّ باكراً. ثُمَّ سُرعانَ ما انتقلَ إِلى البَصرةِ، بَعدَ الفَتحِ الإِسلامي لِبلادِ العراقِ وبِنائِهِمْ لِلبصرَةَ الَّتِي أَصبحَتْ حاضرَةَ بِلادِ الرَّافدينِ، وصَرحَها العلميَّ والدينيَّ والثَّقافيَّ.

اعتنقَ «أَبو الأَسودِ» الإِسلامَ وهوَ لَمْ يَزلْ شاباً يافِعاً بَعدَ فتحِ مَكَّةَ في العامِ العاشرِ لِلهجرةِ، وقَبلَ وَفاةِ النَّبيِّ ﷺ بِفترةٍ وَجيزةٍ، ولَكِنْ لَمْ يَتسَنَّ لَهُ رُؤيَةُ النَّبيِّ ﷺ، فَقدمَ إِلى

المدينَةِ بَعدَ وَفاتِهِ ﷺ، ولَزِمَ خُلفاءَهُ وكبارَ الصَّحابَةِ؛ يَسمَعُ مِنهُمْ، ويَتعلَّمُ مِنْ شُيوخِهِمْ، وكما يَذكُرُ المُؤرِّخونَ أَنَّهُ لازمَ الخليفةَ عُمرَ بنَ الخَطابِ، وعُثمانَ بنَ عَفَّانَ، وعَليّاً بنَ أَبي طالبٍ، وعبدَ اللهِ بنَ عَباسٍ، وأَبا ذَرٍّ الغَفَّاريَّ، وغيرَهُمْ.

وفي المَدينةِ اشْتُهرَ «أَبو الأَسودِ» بِاهتمامِهِ بِعلمِ القِراءاتِ، وبِضلوعِهِ بِمعرفَةِ اللَّفظِ العربيِّ. ويَذكُرُ «الأَصفهانيُّ» أَنَّ الخَليفتين «عمرَ» و«عُثمانَ» قَدِ استعملاهُ في بَعضِ الأَعمالِ الَّتِي تَقعُ في مَجالِ اهتمامِهِ، وأَنَّهُ انتقلَ إِلى البَصرةِ، في عهدِ الخليفَةِ «عمرَ بنِ الخَطَّابِ» رضي الله عنه؛ لأَنَّهُ بَعدَ عصرِ الرَّسولِ ﷺ اتَّسعَتِ الفُتوحُ الإِسلاميَّةُ وازدادَ اختلاطُ العربِ بِغيرِهِمْ مِنَ الأَعاجمِ؛ مِمَّا زادَ شيوعَ اللَّحنِ في كلامِ العربِ.

فَقَدْ كتبَ كاتبُ أَبي موسَى الأَشعريِّ ـ وكانَ والياً عَلى البصرَةِ ـ: «مِنْ أبو موسَ (بِالرَّفْعِ) إِلى الخليفةِ عمرَ بنِ الخطَّابِ». فَكتبَ إِليهِ عُمرُ: «أَمَّا بَعدُ، فَاضربْ كاتبَكَ سوطاً، وأَخِّرْ عَطاءَهُ سَنةً». وكانَ ذَلكَ بِسببِ لَحنِهِ في اللُّغةِ، ولِهذا يَكتبُ عُمرُ إِلى أَبي موسَى فيما بَعد ـ حسبَ ما جاءَ في كتابِ نورِ القبسِ لِلحافظِ اليَغموريِّ ـ قائِلاً: «أَمَّا بَعدُ، فَتَفَقَّهوا بِالدِّينِ، وتَفهَّموا العربيَّةَ، وأَحسنوا عبارةَ الرُّؤيا، ولِيُعلِّمْ «أَبو الأَسودِ» أَهلَ البَصرةِ الإِعرابَ».

وكانَ «أَبو الأَسودِ» مُقيماً في البَصرةِ آنذاكَ، فَصارَتْ لَهُ مدرسَةٌ يُعلِّمُ فيها القِراءَةَ والنَّحوَ.

❀ ❀ ❀

وفي عهدِ الخليفةِ «عثمانَ بنِ عفان» استَمرَّ «أَبو الأَسودِ» في أَداءِ دورِهِ العلميِّ في تَعليمِ النَّاس، وبَعدَ مَقتلِ «عثمانَ» ونُشوبِ الفِتنةِ بينَ المُسلمينَ انحازَ «أَبو الأَسودِ» إِلى صَفِّ الإِمامِ عَليٍّ، وصارَ مِنْ شيعَتِهِ وأَنصارِهِ، وعَرضَ نَفسَهُ عَلى الإِمامِ عَليٍّ لِيكونَ حكماً مِنْ طرفِهِ يَومَ التَّحكيمِ عقبَ معركةِ صفينَ بينَهُ وبينَ مُعاويَةَ بنِ أَبي سَفيانَ، ولَكنَّ الإِمامَ اختارَ أَبا موسَى الأَشعريَّ.

شَغلَ «أَبو الأَسودِ» منصبَ كاتبٍ والي البصرةِ «عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ» في عهدِ الإِمامِ عليٍّ، ثُمَّ بَعدَ إِعفاءِ ابنِ عباسٍ مِنْ ولايَةِ البَصرةِ كلَّفَ الإِمامُ عَليٌّ «الدُّؤليَّ» بِولايتِها، ثُمَّ كلفَّهُ بِقيادةِ جُندِ العراقِ لِقتالِ الخَوارجِ المُنشقِّينَ عَنِ الجَماعةِ، فَأَبلى في حربِهِمْ بَلاءً حَسناً. ومِنْ ثمَّ إِلى جانبِ ذَلكَ كُلِّهِ كانَ أَبو الأَسودِ يُؤَدي دورَهُ العلميَّ بِأَمانَةٍ وشَرفٍ.

ولَمَّا كَثُرَ اللَّحنُ وشاعَ بينَ النَّاسِ وبلغَ أَوجَهُ، دخلَ «أَبو الأَسودِ» يوماً عَلى الإِمامِ عَليٍّ ـ كَما يَروي ياقوتُ الحمويُّ في معجمِ الأُدباءِ ـ فرآهُ مُطرقاً مُفَكِّراً، فقالَ لَهُ:

ـ فيمَ تُفَكِّرُ يا أَميرَ المُؤمنينَ؟

ـ إِنِّي سَمعتُ في بَلدِكُمْ هذا ـ يَعني الكوفةَ ـ لَحناً، فَأَردتُ أَنْ أَضعَ كتاباً في أُصولِ العربيَّةِ.

ـ إِنْ فعلتَ هذا يا أَميرَ المُؤمنينَ أَحيَيتَنا وبَقيَتْ فينا هذِهِ اللُّغةُ.

ثُمَّ خرجَ أَبو الأَسودِ، وأَتاهُ بَعدَ عدَّةِ أَيامٍ، فَأَلقَى الإِمامُ عَليٌّ إِليهِ صَحيفَةً فيها:

«بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، الكَلامُ كُلُّهُ اسمٌ وفعلٌ وحرفٌ، والاسمُ ما أَنبأَ عَنِ اسمِ

المُسمَّى، والفعلُ ما أَنبأَ عَنْ حركةِ المُسَمَّى، والحرفُ ما أنبأَ عَنْ مَعنَى ليسَ بِاسمٍ ولا حرفٍ»، ثُمَّ قالَ لَهُ: تَتَبَّعْهُ وزِدْ فيهِ ما وَقعَ لَكَ.

وبِناءً عليهِ، شَرعَ «أَبو الأَسودِ الدُّؤليُّ» في وَضعِ قَواعدِ النَّحوِ بِتشجيعٍ وبِتوجيهٍ مِنَ الإِمامِ عَليٍّ بَعدَ أَنْ أَهمَّهُ سَماعُهُ النَّاسَ يُلحنونَ بِاللُّغةِ العربيَّةِ، ويُخطئونَ في اللَّفظِ، وبَدأَتْ عَدوَى اللَّحنِ في اللُّغةِ تَنتقِلُ مِنَ الأَعاجِمِ إِلى العربِ، فَقامَ أَبو الأَسودِ بَعدَ ذَلكَ بِوضعِ بابِ الفاعلِ، والمَفعولِ بِهِ، والمُضافِ، وحروفِ النَّصبِ والرَّفعِ والجرِّ والجزمِ، والظاهرِ والمُضمرِ والمُبهمِ مِنَ الأَسماءِ، مُعتمداً عَلى ثَقافَتِهِ ومَعلوماتِهِ في قَواعدِ اللُّغةِ العربيَّةِ، وعَلى ما أَسعفَهُ بِهِ الإِمامُ عَليٌّ مِنْ عِلمِهِ الوافرِ.

وإِنَّما سُمِّيَ النَّحو نَحواً، لأَنَّ «أَبا الأَسودِ» قالَ:

اسْتأْذَنتُ عَليّاً بنَ أَبي طالبٍ أَنْ أَضعَ نَحوَ ما وَضعَ.. فَسمِّيَ لِذَلكَ نَحواً. وفي «الأَغاني»: «قيلَ لأَبي الأَسودِ: مِنْ أَينَ لَكَ هذا العِلم؟ ـ يَعنونَ النَّحوَ ـ قالَ: أَخذتُ حُدودَهُ عَنْ عَليٍّ بنِ أَبي طالبٍ رضي الله عنه».

كانَ لأَبي الأَسودِ مدرسَةٌ لُغويَّةٌ في البصرةِ والكُوفَةِ يَؤُمُّها الطُّلابُ والمُريدونَ، يَأخذونَ عنهُ مَعارفَ اللُّغةِ العربيَّةِ، والحديثَ والفِقهَ، وتَخرَّجَ عَلى يَديهِ مَجموعةٌ مِنَ العُلماءِ الَّذِيْنَ شَكَّلوا فيما بَعد مدرسَةَ البصرةِ، ومدرسَةَ الكوفَةِ في عِلمِ النَّحوِ واللُّغةِ العربيَّةِ. ولِكُلِّ مدرسَةٍ آراؤُها وأُسُسُها وطَريقَتُها في شَرحِ قَواعدِ النَّحوِ واللُّغةِ.

ومِنْ تلامذَتِهِ الَّذِيْنَ أَكملوا بَعدهُ ما بَدأَهُ مِنْ جهدٍ عِلميٍّ في خدمةِ اللُّغةِ العربيَّةِ: نَصرُ بنُ

عاصمِ اللَّيثيُّ النَّحويُّ، ويَحيَى بنُ مُعمَّرٍ العَدويُّ الَّذِي كانَ مِنْ فُصحاءِ التَّابعينَ، ومِنْ كبارِ النُّحاةِ والقُرَّاءِ، وسَعدُ بنُ شَدَّاد الكوفيُّ النَّحويُّ المُضحكُ المَعروفُ بِـ «سعدِ الرَّابيةِ»، وعَنبسَةُ بنُ حمدانَ، ومَيمونُ بنُ الأَقرنِ، وحمرانُ بنُ أَعيُنَ.

كما أَخذَ ورَوَى عَنهُ ابناهُ: عطاءُ بنُ أَبي الأَسودِ، وأَبو حربٍ بنُ أَبي الأَسودِ، وكثيرٌ مِنَ العُلماءِ الأَنجابِ.

بَعدَ استشهادِ الإِمامِ عَليٍّ، تابَعَ أَبو الأَسودِ مسيرَتَهُ العلميَّةَ في نَشرِ قَواعدِ النَّحوِ بينَ النَّاسِ.

❋ ❋ ❋

بَعدَ أَنْ آلَ أَمرُ الخلافَةِ إِلى مُعاويَةَ بنِ أَبي سَفيانَ، وصارَ أَخوهُ «زيادُ بنُ أَبيهِ» والياً عَلى العراقِ، بَقيَ عَلِى حُبِّهِ ووَلائِهِ لِإِمامِهِ عَليِّ بنِ أَبي طالبٍ، يَذودُ عنهُ أَمامَ خُصومِهِ بِحماسٍ مُنقطعِ النَّظيرِ، لا تَأخذُهُ في ذَلكَ لومة لائمٍ، ولا يَخشَى في سبيلِ المُحافظَةِ عَلى وَفائِهِ وبرِّهِ الأَذَى والخَطرَ، بَلْ والمَوتَ في بَعضِ الأَحيانِ. وقَدْ لاقَى مِنْ بَني قُشيرٍ الَّذِيْنَ عاشَ في أَكنافِهِمْ في البَصرةِ كُلَّ أَذى وضَرَرٍ لأَنَّهُ كانَ مِنْ شيعَةِ عَليٍّ، وهُمْ مِنْ أَنصارِ مُعاويَةَ، فَكانوا يَرجمونَهُ بِالحجارةِ، ويَقولونَ لَهُ: «اللهُ يَرجُمُكَ». فَكانَ يَقولُ لَهُمْ: كَذَبتُمْ، لو رَجمني اللهُ لأَصابَني، وتَرجمونَ ولا تُصيبونَ.

كما صارَ مُعلِّماً لأَولادِ والي العراقِ «زيادِ بنِ أَبيهِ»، ومُعلِّماً لأَولاد الخُلفاءِ الأُمويينَ،

فَكانوا جَميعاً يُقدِّرونَ علمَهُ ومَكانَتَهُ، ويُلاقونَهُ بِوجهٍ سَمحٍ، ولو ذَمَّهُمْ ومَدحَ عليّاً في حَضرَتِهِمْ، كما حدَثَ أَكثَرَ مِنْ مَرَّةٍ في مَجلسِ الخليفةِ مُعاويَةَ، وفي مَجالسِ الخُلفاءِ بَعدهُ.

عاشَ «أَبو الأَسودِ» ما يُقاربُ (85) عاماً، وتُوفيَ في أواخرِ عامِ (69) مِنَ الهجرةِ في عهدِ الخليفَةِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، في مرضِ الطَّاعونِ الَّذِي ضَربَ مدينةَ البَصرةِ حينَها، وحَصدَ الآلافَ مِنْ سُكَّانِها. وهوَ مَعدودٌ مِنَ العُرجانِ العربِ المَذكورينَ في التَّاريخِ؛ إِذْ كانَ أَعرجَ وأَعورَ، ويُقالُ: إِنَّهُ في آخرِ عُمرِهِ أُصيبَ بِالفالجِ، فَكانَ يَخرُجُ إِلى السُّوقِ يَجرُّ رِجلَهُ.

ومِمَّا أَخذَهُ المُؤرِّخونَ عَلى أبي الأَسودِ، أَنَّهُ يُعابُ في صِفَتينِ: البُخلِ والتَّزلُّفِ إِلى الحُكامِ؛ فَقَد ذَكرَهُ الجاحظُ في البُخلاءِ، وحكَى عنهُ الحكاياتِ في البُخلِ والشُّحِّ على الرغم من أَنَّهُ كانَ غَنيّاً وموسِراً. وكما ذُكرَ عَنهُ، أَنَّهُ كانَ يَملكُ الخَدمَ والعبيدَ والإِماءَ والجواري، وكانَ لَهُ تِجارةٌ يخرجُ بِها غلمانُهُ وأَرِقَّاؤُهُ، وفي غيرِ ذَلكَ كانَ عَلى قَدرٍ عالٍ مِنَ الخُلقِ والتَّقوَى والدِّينِ.

جاءَ في كتابِ «تَهذيبِ التَّهذيبِ»: «وكانَ ذا دينٍ وعقلٍ ولِسانٍ وبيانٍ وفَهمٍ وذَكاءٍ وحَزمٍ». وقالَ عَنهُ السُّيوطيُّ: وهوَ أَكملُ الرِّجالِ رأياً، وأَسدُّهُمْ عَقلاً.

كانَ يَستحيي مِنَ اللهِ في عَملِهِ وقَولِهِ، قيلَ لَهُ عندَ موتِهِ: أَبشِرْ بِالمغفرَةِ! فَقالَ: «وأَينَ الحياءُ مِمَّا كانَتْ لَهُ المَغفرَةُ؟!». وكانَ ذا همَّةٍ عاليَةٍ حَتَّى عندَ كبرِهِ، فِممَّا يُروَى عنهُ في

ذَلكَ، أَنَّهُ دخلَ يَوماً عَلى الخليفَةِ «عبدِ الملكِ بنِ مروانَ» ـ وقيلَ على مُعاويَةَ ـ فقالَ لَهُ يَسخرُ مِنْ عرجَتِهِ وحَولتِهِ وكبرِ سِنِّهِ:

ـ يا أَبا الأَسودِ، لَو عَلَّقتَ عليكَ عودةً مِنَ العينِ؟

فَأَنشدَهُ:

أَفنَى الشَّبابَ الَّذِي أَفْنيَتَ جِدَّتَهُ كَرُّ الجديدَينِ مِنْ آتٍ ومُنطلِقِ

لَمْ يَترُكا لي مِنْ طولِ اختلافِهما شَيئاً يُخافُ عليهِ لَدغَةُ الحَدَقِ

ثم قال: «أَما واللهِ لَئِنْ كانَتْ أَبلَتني السُّنونُ وأَسرَعَتْ إِليَّ المنونُ لَما أُثبتُ ذَلِكَ إِلا في موضعِهِ. ولَربَّ يَومٍ كنتُ فيهِ إِلى الآنساتِ البيضِ أَشهَى منكَ إِليهنَّ، وإِنِّي اليَومَ لَكما قالَ امرؤُ القَيسِ:

أُراهِنُ لا يُحببْنَ مَنْ قَلَّ مالُهُ و لا مَنْ رَأينَ الشَّيبَ فيهِ وَقُوما

ولَقَدْ كنتُ كما قالَ أَيضاً:

ورعنَ إِلى صَوتي إِذا ما سَمعنَهُ كما يرعوي غيطٌ إِلى صوتِ أَعيسا»

فقالَ عبد الملكِ: قاتلَكَ اللهُ مِنْ شَيخٍ. ما أَعظمَ هِمَّتكَ!

الأَسْئِلَةُ وَالْمُنَاقَشَةُ

1 ـ بِماذا اهتَمَّ أَبو الأَسودِ الدُّؤليُّ؟

2 ـ ما هيَ الأَسبابُ الَّتِي دفَعتْ أَبا الأَسودِ إِلى وَضعِ قَواعدِ النَّحوِ والإِعرابِ؟

3 ـ إِلَى مَنْ يُنسَبُ أَبو الأَسودِ، وأَينَ ولدَ؟

4 ـ بماذا أَمرَ الخليفةُ عمرُ أَبا موسَى الأَشعريَّ؟

5 ـ كيَفَ كانَتْ مدينَةُ الكوفَةِ قبلَ الفَتحِ الإِسلاميِّ لها، وماذا يوجدُ فيها؟

6 ـ ما هيَ المناصبُ الَّتِي تَولَّاها أَبو الأَسودِ في عهدِ الخليفَةِ عَليِّ بنِ أَبي طالبٍ؟

7 ـ ماذا يُؤخذُ عَلى أَبي الأَسودِ؟

8 ـ ماذا تَحمَّلَ أَبو الأَسودِ مِنْ جراءِ تَشيُّعِهِ لِعليِّ بنِ أَبي طالبٍ؟ اذكُرْ حادثَةً عَنْ ذلكَ.

سيبويه الحارثيُّ
مؤسِّس علم النحو
(140 ـ 180هـ)

سيبويه، مُؤسِّسُ علمِ النَّحوِ وجامعُهُ، مِنْ عُلماءِ الأُمَّةِ الَّذِيْنَ تَركوا أَثراً خالداً في عِلمِ النَّحوِ لا يُمحَى ولا يَندثرُ عبرَ الأَيَّامِ والسِّنينَ، فَهوَ باقٍ ما بَقيَ علمُ النَّحوِ واللُّغةُ العربيَّةُ عامَّةً.

فَهوَ مِنْ رُوَّادِ عُلماءِ اللُّغةِ العربيَّةِ والنَّحوِ، وإِليهِ يُعزَى وَضعُ أَوَّلِ كتابٍ شاملٍ لِعلمِ النَّحوِ جَمعَ فيهِ ما تَوصَّلَ إِليهِ هذا العلمُ مِنْ تَطوُّرٍ وازدهارٍ في ذَلكَ العصرِ، وسهَّلَ عَلى العُلماءِ والطلَّابِ والباحثينَ التَّعرُّفَ عَلى مباحثِ علمِ النَّحوِ وقواعدِهِ وموضوعاتِهِ، حيثُ كانَ هذا العلمُ مَحفوظاً في عقولِ العُلماءِ وصدورِهِمْ، وفي رَسائِلَ ومُصنَّفاتٍ مُتفرِّقَةٍ ومُتناثرةٍ يَتداولُها العُلماءُ فيما بَينَهُمْ، ويَقرؤها الشُّيوخُ عَلى طُلَّابِهِمْ.

كما كانَ النَّحوُ العربيُّ عبارَةً عَنْ مَباحثَ مُستَقلَّةٍ عَنْ بَعضِها البَعضِ، فَجاءَ سيبويه وجَعلَها في نَسقٍ واحدٍ ومُتكاملٍ، في كتابٍ جامعٍ مُؤَسِّساً فيهِ عِلمَ النَّحوِ في صورتِهِ العلميَّةِ المَعهودةِ الَّتي ما تَزالُ مُتداولةً، وكما أَنشأَها مِنْ يَومِها وإِلى يَومنا هذا.

فَمِمَّا لا شَكَّ فيهِ، أَنَّ «أبا الأَسودِ الدُّؤليَّ» بَعدَ وَضعِهِ لأَوَّلِ قَواعدِ علمِ النَّحوِ وضَوابِطِهِ وأَبحاثِهِ، أَخذَ علمُ النَّحوِ يَرتقي عَلى أَيدي العُلماءِ والنُّحاةِ رُويداً رُويداً، وبَلغَ إِلى أَوجِ ارْتِقائِهِ كَعلمٍ مُتكاملٍ ولَهُ خُصوصيَّتُهُ المُميزَةُ عَنْ بَقيَّةِ العلومِ عَلى يَدَي «سيبويه» وجُهودِهِ الَّتي بَذلَها في هذا المضمارِ.

كانَ «سيبويه» عالِماً مُجتهداً، فَصيحاً وَرعاً، وثَبتاً حُجَّةً في اللُّغةِ، مُتفانياً في خِدمةِ اللُّغةِ العربيَّةِ رغمَ كونِهِ مِنْ أَصلٍ غيرِ عَربيٍّ. تَحمَّلَ في سَبيلِ ارتقاءِ علمِ النَّحوِ الأَهوالَ والصُّعوباتِ، والمَكائِدَ والمُؤامراتِ الَّتي دَبَّرَها لَهُ خُصومُهُ غيرَةً وحسداً، فَأَورَثَتْهُ تِلكَ المَكائِدُ والمُؤامراتُ الآلامَ النَّفسيَّةَ والجسديَّةَ المُبرحَةَ، وربَّما جَعَلتْهُ يَهجرُ النَّاسَ، ويَلوذُ بِمسقَطِ رأسِهِ، بَعيداً عَنِ المُناظرَةِ والجَدلِ، مُفرداً وَقتَهُ وجُهدَهُ في التَّأليفِ والتَّصنيفِ حَتَّى أَدرَكَتْهُ الوَفاةُ.

ومِنْ ثَمَّ، كانَ رَجلَ عَصرِهِ في عِلمِ النَّحوِ، إذ فاقَ جَميعَ العُلماءِ والنُّحاةِ اهتماماً ومَعرفَةً بِقواعدِ هذا العلمِ الَّذِي ضَبطَ اللُّغةَ مِنَ اللَّحنِ، وصَوَّبَ الخَطأَ في اللَّفظِ أَو الإِعرابِ؛ حَتَّى إِنَّهُ بَلغَ درجةً عاليَةً في هذا العِلمِ لَمْ يَرتقِ إِليها أَساتِذتُهُ وشُيوخُهُ الَّذِيْنَ أَخذَ عَنهُمْ، فَصارَ كِتابُهُ الجامعُ لِعلمِ النَّحوِ وقَواعدِهِ مَرجعاً لأَساتذَتِهِ يَرجعونَ إِليهِ عَلانيةً أَو سِرّاً مِنْ غَيرِ أَنْ يَعرفَ بِرجوعِهِمْ إِليهِ لِتَصويبِ رَأيِهِمْ أَحدٌ مَخافَةَ اللَّومِ أَو الاتِّهامِ بِالقُصورِ المَعرفيِّ مِنْ قِبلِ الآخرينَ.

فَمَنْ هوَ «سيبويه»، وما أَصلُهُ، وأَينَ عاشَ، وكيفَ أَدركَ هذهِ المنزلةَ العاليةَ مِنَ العلمِ؟

هذا ما سَنعرفُهُ عبرَ هذِهِ الصَّفحاتِ التَّاليَةِ.

❁ ❁ ❁

أَجمعَ المُؤرِّخونَ عَلى أَنَّ «سيبويه» فارسيُّ الأَصلِ، وكانَتْ ولادَتُهُ في بَلدةِ البيضاءِ مِنْ قُرَى شيراز في بِلادِ فارس (إيرانَ حالياً)، وعَلى أَنَّهُ قَدمَ البصرةَ صَغيراً، وكانَتْ حياتُهُ قَصيرَةً، ماتَ وهوَ لَمْ يَزلْ شاباً لَمْ يَتجاوزِ العقدَ الرَّابعَ مِنْ عُمرِهِ بَعد، وأَنَّ اسمَهُ الحَقيقيَّ: «عَمرو بنُ عُثمانَ بنِ قنبرٍ الحارثيُّ» ويُكَنَّى بِـ: «أَبي بِشرٍ»، ولُقِّبَ بِـ «سِيبَويه»[1] (بِكسرِ السينِ وفتحِ الباءِ وكسرِ الوَاوِ) ومَعناهُ: رائِحةُ التُّفاحِ.

ولِدَ «سيبويه» في البَيضاءِ حَوالي سَنة (140) هجريَّةً مِنْ أَبوينِ فارسيَّينِ، وعاشَ فيها طفولَتَهُ الأُولَى، ويُرَجِّحُ المُؤرِّخونَ عَلى أَنَّ جدَّهُ «قنبرَ» مَعَ أبيهِ «عثمانَ» قَدِ اعتنَقَا الإِسلامَ بَعدَ الفَتحِ الإِسلاميِّ لِبلادِ فارس والعراقِ، في زمنِ الخليفةِ «عليِّ بنِ أَبي طالبٍ» رضي الله عنه، فَولِدَ مَفطوراً عَلى الإِيمانِ والإِسلامِ، ثُمَّ انتقَلَ معَ والديهِ للعيشِ في مَدينةِ البَصرةِ وهوَ لَمْ يَزلْ طِفلاً، وصارَ والدُهُ مَولى لِبني «الحارثِ بنِ كَعبٍ»[2] الَّذِيْنَ كانوا مِنْ أَعزِّ سُكَّانِ البَصرَةِ حينَها، فَنشَأَ سيبويه وتَرعرَعَ بَينَهُمْ، ولِذا أَصبَحَ نسبُهُ عَربيّاً ـ الحارثي ـ نسبَةً إِلى بَني الحارثِ

---

(1) سيبويه: اسم فارسي مركب مزجي من (سيب) و(بوي) وقيل: سمي سيبويه لطيب رائحته، أو لجمال خلقته وحسن خلقه، وقيل أيضاً: إن سيبويه مركب من (سيب): التفاح و(ويه): اسم صوت، وقد ذكر بعضهم أن (ويه) تعني: «مثل» و«شبه» فمعنى التركيب المزجي: مثل التفاح.

(2) بنو الحارث بن كعب: نسبةً إلى الحارث بن كعب بن عمرو من بني تميم، وكان يقال للحارث (مقاعس) فقيل لبنيه: بني مقاعس، وكان الحارث من فرسان العرب المشهورين والمعدودين.

الَّذِيْنَ عاشَ في أَكنافِهِمْ، ومِنْ ثَمَّ صارَ «سيبويه» مَولًى لِآلِ «الرَّبيعِ بنِ زيادٍ»[1].

كانَتْ مَدينةُ البصرةِ حينَ قَدمَ إليها «سيبويه» معَ والديهِ تَعجُّ بِالعُلماءِ والفُقهاءِ والقُرَّاءِ والنُّحاةِ، ويَنشغلُ مُعظمُ أَبنائِها في طلبِ العلمِ مُنذُ صغرِهِمْ، فَانْتقلَتْ عَدوَى حُبِّ العلمِ وطَلبِهِ إلى هذا الصَّبيِّ الفارسيِّ الوافد إلى البَصرةِ. فَشرعَ يَطوفُ عَلى عُلماءِ البَصرةِ ومُقرئيها، فَحفظَ القُرآنَ، وأَتقنَ الحديثَ والتَّكلُّمَ بِالعربيَّةِ الفُصحَى وهوَ لَمْ يَزلْ في الرَّابِعة عشرةَ مِنْ عُمرِهِ، ثُمَ خَرجَ يَطلبُ الحديثَ ويَسمعُهُ حِفظاً وإِتقاناً عَنْ أُستاذِ عُلماءِ البَصرةِ حينَها «حمَّادٍ البَصريِّ»[2].

أَمَّا عَنْ سَببِ اهتمامِهِ باللُّغةِ العربيَّةِ، وشَغفِهِ بِعلمِ النَّحوِ، فَيرجعُ إِلى خَطئِهِ ولَحنِهِ بِالكلامِ وهوَ يُراجعُ أَمامَ أُستاذِهِ أَحدَ أَحاديثِ السُّنَّةِ النَّبويَّةِ المُطهَّرةِ، ذَكَرَ المُؤرِّخونَ:

إِنَّ «سيبويه» ذَهبَ ذاتَ يومٍ إِلى شَيخِهِ «حمَّادٍ البَصريِّ» لِيَتلقَّى مِنهُ الحديثَ ولِيَستَمليَ عليهِ قَولَ النَّبيِّ ﷺ «**ليسَ مِنْ أصحابي أَحدٌ إِلَّا ولَو شئتُ لأَخذتُ عليهِ إِلَّا أَبا الدَّرداءِ**» ولَكنَّ «سيبويه» ولِقَدرٍ قَدَّرَهُ اللهُ لَهُ قَرأَ الحديثَ عَلى هذا النَّحوِ: «ليسَ مِنْ أصحابي أَحدٌ إِلَّا ولَو شئتُ لأَخذتُ عليهِ إِلَّا أَبو الدَّرداءِ».

---

(1) آل الربيع بن زياد: هم بالأصل من بني عبس نزلوا وسكنوا العراق في الحيرة والبصرة والكوفة، وكان الربيع بن زياد من وجهاء بني عبس ويلقب بـ (دالق) لكثرة إغارته. وجاء في كتاب «الأغاني» أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، سأل الشاعر الحطيئة يوماً وكان من بني عبس: كيف كنتم في حربكم؟ قال: كنا ألف حازم، قال: وكيف؟ قال: كان فينا قيس بن زهير وكان حازماً وكنا لا نعصيه، وكنا نقدم إقدام عنترة، ونأتم بشعر عروة بن الورد، وننقاد لأمر الربيع بن زياد.

(2) هو: حماد بن سلمة الإمام العلم شيخ أهل البصرة، كان فصيحاً بليغاً كبير القدر صاحب سنة وأثر.

فَصاحَ بِهِ شَيخُهُ: لَحَنتَ يا سيبويه! إنَّما هذا استثناءٌ.

فَقالَ سيبويه: واللهِ لَأَطلبَنَّ عِلماً لا يلحُنُني معهُ أَحدٌ.

فَخرَجَ ولزمَ «الخليلَ بنَ أَحمدَ الفَراهيديَّ»، ومِنْ هُنا كانَتْ بِدايَتُهُ معَ علمِ النَّحوِ.

والَّذِي لَحنَ وأخطأَ بِهِ «سيبويه» أَنَّهُ تَوهَّمَ وجوبَ رَفعِ ما بَعدَ «ليسَ» عَلى أَنَّهُ اسمُها والصَّحيحُ نَصبُهُ بِسببِ الاسْتِثناءِ، و«ليسَ» لا تَعملُ في اسمِها في هَذِهِ الحالةِ.

ويَذكُرُ المُؤرِّخونَ أَيضاً حادثَةً أُخرَى أَدَّتْ إِلى تَوجُّهِ «سيبويه» إِلى النَّحوِ ولُزومِهِ «الخليلَ بنَ أَحمدَ» وهيَ:

إِنَّ «سيبويه» جاءَ شَيخَهُ «حمَّاداً» يَوماً، وقالَ لَهُ:

ـ أَحدَّثَكَ هشامُ بنُ عُروَةَ عَنْ أَبيهِ في رَجلٍ رَعُفَ[1] (بِضَمِّ العينِ) في الصَّلاةِ؟

فَقالَ لَهُ حمّادٌ: أَخطأتَ! إِنَّما هوَ رَعَفَ ـ بِفتحِ العينِ ـ فَأَتَى «سيبويه» الخليلَ بنَ أَحمدَ فَشَكا إِليهِ ما وَجدَهُ مِنْ حمَّادٍ.

فَقالَ الخليلُ: صدقَ حَمَّادٌ، ومِثلُ حمَّادٍ يَقولُ هذا.

فَحاجَتُهُ إِلى تَقويمِ لَفظِهِ وكلامِهِ مِنَ اللَّحنِ والخَطأِ دَفَعتْهُ إِلى الاهتمامِ بِاللُّغةِ والنَّحوِ، والعروجِ عَلى علماءِ اللُّغةِ والنَّحوِ البَصريينَ.

❋ ❋ ❋

(1) أي أصابه الرعاف أثناء وقوفه في الصلاة. والرعاف: نزول الدم من الأنف قليلاً أو كثيراً.

مَعَ بِدايَةِ اهتمامِهِ بِاللُّغةِ والنَّحوِ، لَزِمَ «سيبويه» أُستاذَهُ الثَّاني «الخَليلَ بنَ أَحمدَ» يَأخذُ عنهُ مبادئَ العربيَّةِ والنَّحوِ، وكانَ «الخليلُ بنُ أَحمدَ» شَيخَ عُلماءِ البَصرةِ في النَّحوِ والعَروضِ والمُوسيقَى، يَجتمعُ إِليهِ العُلماءُ والطُّلَّابُ يَنهلونَ مِنْ مَعارِفِهِ وعِلمِهِ، فَتعلَّمَ مِنهُ «سيبويه» مَخارجَ الحروفِ وقَواعدَ اللُّغةِ العربيَّةِ والنَّحوِ، ثُمَّ طافَ عَلى بَقيَّةِ عُلماءِ البَصرةِ، يُحَصِّلُ مِنْهُمْ عِلماً وافِراً في اللُّغةِ والنَّحوِ، فَسمعَ مِنْ «أَبي الخطَّابِ الأَخفشِ»[1] الَّذِي يُلقَّبُ بِالأَخفشِ الأَكبرِ، ومِنْ «عيسَى بنِ عمرو الثَّقَفيِّ»[2]، ومِنْ «يونسَ بنِ حبيبٍ»[3]، ومِنْ «أَبي زَيدٍ النَّحويِّ»[4]، وقَرأَ عَلى «هارونَ بْنِ موسَى» المُلقَّبِ بِالقارئِ الأَعوَرِ وكانَ مِنْ كبارِ نُحاةِ البَصرةِ وعالِماً بالقِراءاتِ.

بَعدَ أَنْ أَتَمَّ «سيبويه» تَحصيلَهُ العِلميَّ، صارَ لَهُ مجلسُهُ الخاصُّ في البَصرةِ بِحضورِ أَساتذَتِهِ وشُيوخِهِ يَغشاهُ النَّاسُ، وأَصبحَ الإِمامُ المُقدَّمُ في النَّحوِ ويَترأَّسُ مدرسَةَ البَصرةِ في اللُّغةِ والنَّحوِ، فَطارَتْ شهرتُهُ في الآفاقِ، وصارَ نَحوُ البَصريينَ بِفضلِهِ يُنافسُ نَحوَ الكوفيينَ الَّذِيْنَ يَتزعَّمُ مَدرسَتَهُم العالمُ والنَّحويُّ المَشهورُ «الكسائيُّ»؛ الَّذِي كانَ مُعلِّماً لأَولادِ

---

(1) أبو الخطاب الأخفش: كان إماماً بالعربية ورعاً ثقةً، وهو أول من فسر الشعر تحت كل بيت.

(2) عيسى بن عمرو: من نحاة البصرة وكان فصيحاً لبيباً، وهو أستاذ الفراهيدي في النحو.

(3) يونس بن حبيب: حكى عنه سيبويه في كتابه، وكانت حلقته بالبصرة يقصده العلماء وطلاب العربية وفصحاء الأعراب والبادية.

(4) أبو زيدٍ النحوي: هو سعيد بن أوس الأنصاري من علماء ونحاة البصرة، وكانت حلقته في البصرة ينتابها الناس، وله تصنيف في النحو وآخر في النوادر، وكان ثقة حجة مقبول الرواية.

الخليفَةِ العباسيِّ «هارون الرَّشيدِ»، ومُقرَّباً مِنْ وَزيريهِ جَعفر بنِ يَحيَى البُرمكيِّ وأَخيهِ الفَضلِ بنِ يَحيَى.

وكانَ نَحوُ الكُوفيينَ هو المُسيطرُ عَلى السَّاحةِ الثَّقافيَّةِ والعلميَّةِ وبِهِ يَأْخذُ أَغلبُ النَّاسِ، فَأرادَ «سيبويه» أَنْ يَنشُرَ نَحوَ البَصريينَ ويَجعلَ لَهُ السِّيادةَ عَلى نَحوِ الكُوفيِّينَ، فأَزمَعَ الذَّهابَ إِلى بَغدادَ ومناظرَةَ الكُوفيينَ وإِظهارَ تَفوُّقِهِ عليهِمْ في حضورِ البَرامِكةِ، فَلمَّا سَمعَ الكِسائيُّ بِقدومِ «سيبويه» خافَ مِنْ مُناظرَتِهِ لِعلمِهِ بِأَنَّه أَعلمُ أَهلِ زَمانِهِ بِعلمِ النَّحوِ، ولا يُمكنُ أَنْ يُجاريه أَحدٌ في هذا، سَواءٌ في البَصرةِ أَو الكُوفةِ أَو بَغدادَ، وهُنا أَتَى الكِسائيُّ إِلى جَعفرِ بنِ يحيىَ وأَخيهِ الفَضلِ وقالَ لَهُما:

ـ أَنا وليكُما وصاحبُكُما، وهذا الرَّجلُ إِنَّما قَدمَ لِيذهبَ مَحلّي.

فَقالا لَهُ: احتَلْ لِنَفسِكَ، فَإِنَّا سَنَجمعُ بينكُما.

فَدبَّرَ الكِسائيُّ خُطَّةً لِلإِيقاعِ بِسيبويه، تَقضي بِأَنْ يَتقدَّمَ أَصحابُ الكِسائيِّ بِمُناظرةِ سيبويه أَوَّلاً وإِرهاقِهِ بِالأَسئلةِ والمُخالفَةِ، حَتَّى إِذا فَترَتْ هِمَّتُهُ وظَهرَ عَجزُهُ دَلفَ الكِسائيُّ لِيَجدَهُ فاقِدَ العَزمِ واهنَ الفِكرِ.

وأُعلِنَ في بَغدادَ نَبأُ المُناظرةِ، وسَمعَ بِها القريبُ والبَعيدُ، وأَتَى سيبويه في اليَومِ المَوعودِ وقَعدَ لَها وهوَ لا يَدري أَنَّ الأَمرَ قَدْ دُبِّرَ بِليلٍ، وأَنَّ وراءَ الأَكمةِ شَيءٌ لا يَخطرُ عَلى البالِ، ولا يَقعُ في الحُسبانِ.

حَضرَ سيبويه المُناظرَةَ، وتَزاحمَ عليهِ النُّحاةُ الكوفيُّونَ أَصحابُ الكِسائيِّ، وهوَ وَحدُهُ

مِنْ غيرِ صاحبٍ ولا سَندٍ، وبَدؤوا يُمطرونَ عليهِ وابلَ أَسئلَتِهم التَّعجيزيَّةِ وهوَ يُجيبُهُمْ عَنها ويُفنِّدُها وفقَ نَحوِ البَصريينَ، وهُمْ يُخطئونَهُ ويَقولونَ خِلافَ رأيِهِ حَتَّى مَلَّ مِنهُمْ ومِنْ أَسئلَتِهِمْ، وبينَما هوَ كَذلِكَ إِذْ دخلَ الكِسائيُّ ومَعهُ بَعضُ الأَعرابِ الَّذِيْنَ كانوا يَستفيدونَ مِنهُ في قَضاءِ حوائِجِهِمْ عِندَ الخليفةِ وعندَ البَرامكةِ، وبادرَ سيبويه بِالسُّؤالِ قَائِلاً لَهُ: كيفَ تَقولُ «كُنتُ أَظنُّ أَنَّ العقربَ أَشدُّ لَسعةً مِنَ الدَّبورِ، فَإِذا هوَ هيَ» (عَلى الرَّفعِ)، أَمْ «فَإِذا هوَ إِياها» (عَلى النَّصبِ)؟

فَأجابَ سيبويه: أَقولُ: «فَإِذا هوَ هيَ» (عَلى الرَّفعِ).

ولَكِنَّ الكِسائيَّ أَجازَ الوَجهينِ معاً عَلى اعتبارِ جوازِ الرَّفعِ أَو النَّصبِ، أَمَّا سيبويه فقد خَطَّأَهُ وأَصرَّ عَلى رَأيِهِ بِوجوبِ الرَّفعِ، فَقالَ لَهما جعفرُ بنُ يَحيَى: قَدِ اختلَفتُما وأَنتما رَئيسا بَلديكُما، فَمَنْ يَحكمُ بينَكُما؟

❋ ❋ ❋

فَأَشارَ الكِسائيُّ إِلى الأَعرابِ الَّذِيْنَ قَدموا مَعهُ، فَطلبَ جعفرُ مِنهُمُ الإِدلاءَ بِحُكمِهِمْ بينَ المُتناظرينِ، فَأَيَّدوا رَأيَ الكِسائيِّ، فَانقطعَ سيبويه واستكانَ، معَ أَنَّ رأيَهُ هوَ الأَصَحُّ.

وانصرفَ النَّاسُ يَتحدَّثونَ بِهذِهِ الهزيمةِ الَّتي مُنيَ بِها إِمامُ البَصريينَ، فَتوَلَّى سيبويه عَنهُمْ وخرجَ مِنْ بَغدادَ حَزيناً كَئيباً لا يَكادُ يَتصَوَّرُ أَنْ يَتطرَّقَ الشَّرُّ إِلى محرابِ العلمِ ويُدَنِّسَ حُرمتَهُ ومَجلِسَهُ بِهذِهِ الصُّورةِ المُقذيَةِ والبَشعةِ، ولِهذا قَرَّر اعتزالَ النَّاسِ، والعودةَ إِلى مَسقطِ رأْسِهِ، فَعادَ إِلى بَلدتِهِ البيضاءِ في بِلادِ فارس.

وهُناكَ لَمْ يَمكُثْ إِلَّا قَليلاً حَتَّى مرضَ مرضاً شَديداً ولَقيَ وَجهَ رَبِّهِ وهوَ في رَيعانِ شَبابِهِ؛ إذ لَمْ يَتجاوزْ عمرُهُ الأَربعينَ سنةً بَعد. فكانَتْ وَفاتُهُ سنةَ (180) هجريَّةً كما رَجَّحَ المُؤرِّخونَ.

ويُروَى أَنَّهُ عندَ موتِهِ وَضعَ رأسَهُ في حجرِ أَخيهِ، فَبكَى أَخوهُ وسالَتْ دموعُهُ عَلى خَدِّهِ، فرفعَ سيبويه رأسهُ فَرآهُ باكياً، فَأَنشدَ يَقولُ:

أخـيَّـيـنَ كُـنَّـا فَـرَّقَ الـدَّهـرُ بَـيـنَـنـا إلى الأَمدِ الأَقصَى ومَنْ يَأمَنُ الدَّهرَ؟!

❋ ❋ ❋

ماتَ سيبويه، ولَحقَ بِالملأِ الأَعلَى، ولَكنَّ ذكرَهُ بقيَ خالداً أَبدَ الدَّهرِ ما خلدتْ لُغَتُنا العربيَّةُ الرَّحبةُ، أَو إِلى ما يَشاءُ رَبُّنا ﷻ، وذَلكَ لِما قَدَّمهُ مِنْ أَثرٍ خالدٍ أَفادَ بِهِ النَّاسَ، وجَعلَ بينَ أَيديهِمْ علمَ النَّحوِ ميسَّراً ومُتداولاً بَعدَ أَنْ كانَ مَحفوظاً في قلوبِ العُلماءِ، أَو في مَخطوطاتٍ مُتفرِّقَةٍ على شَكلِ أَبحاثٍ، يَتداولُها العُلماءُ فيما بَينَهُمْ.

تَركَ سيبويه بَعدَ موتِهِ كتابَ النَّحوِ؛ الَّذِي أَسَّسَ مِنْ خِلالِهِ علمَ النَّحوِ، حيثُ كانَ أَبو الأَسودِ الدُّؤليُّ قَدْ بادرَ قَبلهُ بِسنينَ كثيرةٍ بِوضعِ أَولِ أَبحاثٍ وأَقسامِ هذا العلمِ الَّذِي أَخذَ خطواتِهِ الأُولَى عَنِ الإِمامِ عَليٍّ رضي الله عنه، ولَكِنَّ هذا العلمَ اكتملَتْ صورَتُهُ بِالشَّكلِ العِلميِّ المَعهودِ عَلى يَدَي سيبويه.

ماتَ سيبويه قبلَ أَنْ يُخرجَ كتابَهُ لِلنَّاسِ، فَأَتَى تلميذُهُ «أَبو الحسنِ بنُ مَسعدةَ» الَّذِي يُلقَّبُ بِالأَخفشِ الأَوسطِ، وأَخرجَ كتابَ أُستاذِهِ لِلوجودِ بَعدَ أَنْ هَذَّبَهُ وبَوَّبَهُ، ولَمْ يَشأْ أَنْ

يُطلقَ عليهِ اسماً تَقديراً واحتراماً لأُستاذِهِ، فَأطلقَ عليهِ «الكتابَ» أَو «كتابَ سيبويه في النَّحوِ»، ولِهذا إِذا أُطلقَ لَفظُ الكتابِ مُجرَّداً مِنْ أَيِّ اسمٍ، فَإِنَّما يُقصدُ بِهِ كتابُ سيبويه في علمِ النَّحوِ.

طارَ ذِكرُ سيبويه وكتابُهُ في الآفاقِ، وعبرَ البُلدانِ والأَقطارِ، وغزا عقولَ العُلماءِ في بِلادِ الأَندلسِ، وفي بِلادِ السِّندِ، وفي كُلِّ بَلدٍ وناحيَةٍ وَصلَها صوتُ العروبَةِ والإِسلامِ، وصارَ المُعوَّلُ عليهِ في علمِ النَّحوِ وقَواعدِهِ عندَ كُلِّ النَّاسِ، وتَقبَّلَهُ العُلماءُ وفُقهاءُ العربيَّةِ قبولاً حَسناً، وحُظيَ عندَهُمْ بِالتَّقديرِ والاهتمامِ، وأصبحَ مِنَ الكتبِ النَّادرةِ في حياةِ النَّاسِ، فَهذا ابنُ صاعدٍ الأَندلُسيُّ يَقولُ عَنهُ:

«لا أَعرفُ كتاباً أُلِّفَ في علمٍ مِنَ العُلومِ قَديمِها وحديثِها فَاشتَملَ عَلى جميعِ ذَلكَ العلمِ، وأَحاطَ بِجميعِ أَجزاءِ ذَلكَ الفَنِّ غيرَ ثلاثَةِ كُتبٍ: أَوَّلُها، كتابُ (المِجسطيِّ) في علمِ الفَلكِ والهيئَةِ والنُّجومِ، وثانيها، كِتابُ (أَرسطوطاليس) في صناعَةِ المَنطقِ، وثالثُها، كتابُ سيبويه في علمِ النَّحوِ العربيِّ، فَإِنَّ هذِهِ الكُتبَ الثَّلاثَةَ لا يَشذُّ عَنْ كُلِّ واحدٍ مِنها مِنْ أُصولِ علمِهِ ولا مِنْ فروعِهِ إِلَّا ما لا خَطرَ لَهُ».

قالَ عَنهُ إِمامُ اللُّغةِ وفَقيهُ النَّحوِ «المُبرِّدُ»:

«لَمْ يُعملْ كتابٌ في علمٍ مِنَ العُلومِ مثلُ كتابِ سيبويه، وذَلكَ أَنَّ الكُتبَ المُصنَّفةَ في العلومِ مُضطرَّةٌ إِلى غيرِها، وكتابُ سيبويه لا يَحتاجُ في فَهمِهِ إِلى غيرِهِ».

ويُعتبرُ كتابُ سيبويه، بِحقٍّ، بِمثابةِ خَزانةٍ لِلكُتبِ احتواها بِالقوَّةِ، ودارَ العُلماءُ في

فَلكِهِ مِنْ أَوَّلِ ما وضِعَ بينَ أَيديهِمْ، كما اعتبرَ المَصدَرَ الأَساسيَّ الَّذِي يُرجعُ إِليهِ في علمِ النَّحوِ والصَّرفِ، وعلمِ الأَصواتِ.

ويَقعُ الكتابُ في أَكثرَ مِنْ تسعمئةٍ وعشرينَ صَفحةً، ويَتألَّفُ مِنْ جزأينِ: الأَوَّلِ في مباحثِ النَّحوِ، والثَّاني في مباحثِ المَمنوعِ مِنَ الصَّرفِ ومباحثِ النَّسبِ والتَّصغيرِ والإِضافةِ وبَقيَّةِ مباحثِ التَّصريفِ ومَباحثِ العربيَّةِ عامَّةً، فَفيهِ المَجازُ والمَعاني وضَروراتُ الشِّعرِ وإِنشادُهُ، وتعريبُ الكلماتِ الأَعجميَّةِ، وفيهِ أَيضاً قَدرٌ وافٍ مِنْ مَباحثِ الأَصواتِ العربيَّةِ.

يَقولُ أَحدُ الباحثينَ المُعاصرينَ، مُدَلِّلاً عَلى مكانةِ سيبويه، وعَلى قيمةِ كتابِهِ:

«كثيراً ما كُنَّا نَسمعُ شُعراءَ تونسَ وهُمْ يَندبونَ حَظَّهُمْ، ويَتَّهمونَ أَبا القاسمِ الشَّابيَّ بِأَنَّهُ حكمَ عليهِمْ بِالإِعدامِ؛ لأَنَّهُ ما ذُكرَ الشِّعرُ التُّونسيُّ إِلَّا وذُكرَ أَبو القاسمِ الشَّابيُّ فَقَطْ، يَبدو أَنَّ هذا الاتِّهامَ وجِّهَ إِلَى سيبويه أَيضاً، فَيقولُ عُضوٌ مِنْ أَعضاءِ المَجمعِ اللُّغويِّ: قَدْ كانَ مِنْ سوءِ حَظِّ النَّحوِ العربيِّ أَنْ جاءَ سيبويه في وَقتٍ مُبكرٍ جِدّاً لا يَتجاوزُ النِّصفَ الثَّاني مِنَ القرنِ الثَّاني الهجريِّ؛ إِذْ نتجَ عَنْ تَفوُّقِهِ، وشِدَّةِ إِعجابِ النُّحاةِ بِهِ أَنْ أُصيبَ التَّفكيرُ النَّحويُّ بِشللٍ، ودارَ الجميعُ في فَلكِ سيبويه، ولَمْ يُطوِّروا بِالقدرِ الكافي، ويَكفي دليلاً ما كانَ لِعملِ سيبويه مِنْ سحرٍ وإِغراءٍ إِطلاقُهُمْ عَلى كتابِهِ اسمَ: (قُرآنِ النَّحوِ)».

الأَسْئِلَةُ وَالْمُنَاقَشَةُ

1 ـ ماذا يُعزَى إلى سيبويه؟

2 ـ كيفَ كانَ علمُ النَّحوِ قبلَ سيبويه؟

3 ـ ماذا تَحمَّلَ سيبويه في سبيلِ ارتقاءِ علمِ النَّحوِ؟

4 ـ أَينَ ولدَ سيبويه، وما اسمهُ الحقيقيُّ، ولِماذا يُسَمَّى بِسيبويه؟

5 ـ كيفَ كانَتْ مَدينةُ البَصرةِ عندَ مقدمِ سيبويه إِليها؟

6 ـ لِماذا ذهبَ سيبويه إِلى بَغدادَ؟

7 ـ كيفَ دُبِّرَتِ المُؤامرةُ ضدَ سيبويه؟

8 ـ ماذا يُعتبرُ كتابُ سيبويه في علمِ النَّحوِ؟

أَبو حمزةَ الكِسائيُّ
إِمامُ نُحاةِ الكوفةِ
(. . . ـ 189هـ)

أَبو حمزةَ الكِسائيُّ، إِمامُ نُحاةِ البصرةِ، ومُعلِّمُ أَبناءِ الخُلفاءِ والحُكَّام، وزَعيمُ علمِ النَّحوِ في عَصرِهِ بِلا مُنازِعٍ، أَجلُّ مِنْ أَنْ يُعرَّفَ، وأَعظَمُ مِنْ أَنْ يُوصَفَ علمُهُ وفَضلُهُ عَلى مَسيرةِ علمِ النَّحوِ في هَذِهِ العُجالةِ السَّريعَةِ.

ولَكِنْ، إِذا كانَ الحَقُّ يَجبُ أَنْ يُذكرَ ـ كما يُقالُ ـ فإِنَّ «أَبا حمزةَ الكسائيَّ» أَولَى مَنْ يَجبُ أَنْ يُذكرَ ونَحنُ نَتحدَّثُ عَنْ عُلماءِ النَّحوِ، وحَقٌّ لازبٌ عَلينا أَنْ نَصفَ عِلمَهُ وفَضلَهُ عَلى عِلمِ النَّحوِ وعُلمائِهِ في هذا المَقامِ.

وكيفَ لا؟ والإِمامُ الشَّافعيُّ يَقولُ مادحاً سِعةَ علمِ الكِسائي: «مَنْ أَرادَ أَنْ يَتبحَّرَ في النَّحوِ فَهوَ عيالٌ عَلى الكِسائيِّ»[1].

ومِمَّا لا رَيبَ فيهِ، أَنَّ «أَبا حمزةَ الكسائيَّ» عاشَ في حينِ فَترةٍ كانَ فيها علمُ النَّحوِ في

---

(1) وفيات الأعيان لابن خلكان، والقول يرويه حرملة بن يحيى عن الشافعي.

أَزهَى وأَعظمِ مراحلِهِ، حيثُ تَأَلَّقَتْ مَسيرتُهُ، وتَوَسَّعَتْ أبحاثُهُ تَوسُّعاً مَلحوظاً وغَنيّاً، كَما عاشَ في حينِ غرَّةٍ مِنَ الزَّمنِ وَصلَتْ فيها الحضارةُ العربيَّةُ والإسلاميَّةُ إِلَى أَزهَى حقبِها، وإِلَى أَعظمِ عُصورِها قُوَّةً وغِنىً وظُهوراً عَلَى حَضاراتِ الأُمَمِ الأُخرَى، ووَصلتِ الخلافةُ الإسلاميَّةُ إِلى قمَّةِ مَجدها، حَيثُ كانَ خَليفَةُ المُسلمينَ هارونُ الرَّشيدُ يَقفُ ويُخاطبُ الغيومَ المُحمَّلةَ بِالخيرِ والغيثِ قائِلاً لَها: «أَمطري حيثُ شِئتِ فَسوفَ يأتيني خِراجُكِ».

فَوسطَ هذِهِ الأَجواءِ الَّتِي تَيسَّرتْ فيها كُلُّ أَسبابِ التَّحصيلِ العلميِّ، وكُلُّ وسائِلِ البَحثِ والإبداعِ، كانَ أَبو حمزةَ الكِسائيُّ ثانيَ اثنينِ في عصرِهِ أَسهما إِسهاماً كبيراً في ارتقاءِ وتَقدُّمِ علمِ النَّحوِ. فَفي البَصرةِ قامَ سيبويه بِإِكمالِ ما بَدأَهُ الأَوَّلونَ، وأَرسَى القَواعدَ والمبادئَ العامَّةَ لِعلمِ النَّحوِ، وجَعلَهُ مُيسَّراً لِجميعِ النَّاسِ، وفي الكوفَةِ قامَ «أَبو حمزةَ الكِسائيُّ» بِتطويرِ طرقِ وأَساليبِ البَحثِ في علمِ النَّحوِ عَلى نَحوٍ مَنهجيٍّ لأَوَّلِ مرَّةٍ في تاريخِ علمِ النَّحوِ، وأَسَّسَ ما يُعرفُ بِمدرسَةِ الكوفةِ في علمِ النَّحوِ الَّتِي انتَهَتْ إِليها الرِّيادةُ في هذا العلمِ في حياتِهِ، بَعدَ المُناظرةِ المَشهورةِ الَّتِي جَرَتْ بينَهُ وبينَ إِمام مدرسةِ البصرةِ سيبويه وتَفوَّقَ فيها عليهِ.

كما لا يَفوتُنا أَنْ نذكرَ أَنَّ «أَبا حمزةَ الكِسائيَّ» أَوَّلُ مَنْ وَجَّهَ عنايَةَ الفُقهاءِ إِلى الاهتمامِ بِعلمِ النَّحوِ وقَواعدِهِ، وذَلِكَ لِما هُناكَ مِنْ صلَةٍ وَطيدةٍ بينَ قَواعدِ وأَحكامِ عِلمِ الفقهِ مِنْ جِهَةٍ، وقَواعدِ عِلمِ النَّحوِ من جهَةٍ أُخْرَى؛ لأَنَّ كثيراً مِنَ الأَحكامِ الفقهيَّةِ تُبنَى عَلى أَساسِ اللَّفظِ[1].

(1) كالألفاظ المتعلقة بعقود الزواج والطلاق والبيوع والرهن والإجارة، وألفاظ القسم والأيمان، والألفاظ =

ومِنْ ثمَّ لا نَنسَى أَيضاً، أَنَّ الخليفةَ هارونَ الرَّشيدَ ما غالَى وأَطنبَ يَوماً في مَدحِ عالمٍ كما مدحَ الكِسائيَّ، وما هرعَ وحزنَ وذرفَ الدُّموعَ لِموتِ عالمٍ كما حزنَ وبَكَى عَلى الكِسائيِّ. وإنْ دلَّ ذَلكَ على شَيءٍ فَإِنَّما يَدلُّ عَلى عَظيمِ المَكانَةِ والمَنزلةِ الَّتِي تَرَبَّعَ عَلى عَرشِها الكِسائيُّ في نَفسِ أَعظمِ خُلفاءِ بَني العبَّاسِ مَجداً وقوَّةً.

فَمَنْ هوَ «أَبو حمزةَ الكِسائيُّ»، وما هيَ أَهمُّ مَعالمِ حياتِهِ؟ هذا ما سَنعرفُهُ ونَقرؤُهُ في الصَّفحاتِ التَّاليَةِ.

❋ ❋ ❋

هوَ أَبو الحسنِ عليُّ بنُ حمزةَ بنِ عبدِ اللهِ بنِ عُثمانَ بنِ بهمنَ بنِ فيروزَ، و«بهمنُ بنُ فيروزَ» الَّذِي يَنتهي إِليهِ نسبُ «الكِسائيِّ» واضحٌ أَنَّهُ فارسيٌّ قَدمَ مِنْ بِلادِ فارس، ونزلَ الكوفَةَ وسَكنَها، موالياً لِبني أَسدِ بنِ خُزيمةَ الَّذِينَ كانوا مِنْ أَعظمِ أَحياءِ الكوفَةِ حينَها، ومِنْ ثمَّ كانَ مِنْ نَسلِهِ وأَحفادِهِ «أَبو حمزةَ الكِسائيُّ».

ولِدَ «أَبو حمزةَ الكِسائيُّ» في قَريَةٍ مِنْ قُرَى الكوفَةِ، ونَشأَ وتَرعرَعَ فيها، ولَمْ يَذكُرِ المُؤرِّخونَ سنةَ ولادتِهِ، ولَكِنْ عَلَى الأَغلبِ أَنَّهُ ولدَ في الفترةِ الَّتِي تَقعُ بينَ عامَي (105 و110) هجريينِ، وبعدَ نُضوجِهِ العقليِّ وبُلوغهِ سنَّ الرُّشدِ خالطَ في الكوفَةِ العُلماءَ

= المتعلقة بالعبادات. فتبنى أحكامها استناداً إلى صحة اللفظ أو الخطأ فيه. فالمناظرات التي جرت بين الكسائي والفقيه محمد بن الحسن صرفت عناية الفقهاء إلى الاهتمام بقواعد علم النحو لتقرير بعض الأحكام الفقهية.

والفُقهاءَ والقُرَّاءَ، وحَقَّقَ في نَفسِهِ شَيئاً مِن العلمِ والمعرفَةِ والثَّقافةِ، ولَكنَّهُ لَمْ يَطلبْ علمَ النَّحوِ ويَعمَدْ إلى تَحصيلِهِ إلَّا في كبرِهِ، ويَذكُرُ المُؤرِّخونَ عَنْ أَبي زكريا الفرَّاءِ تلميذِ الكِسائيِّ، السَّببَ الَّذِي دفعَ الكِسائيَّ إلى طلبِ علمِ النَّحوِ، والعكوفِ عَلى دراسَتِهِ، يقولُ الفرَّاءُ: «إنَّما تَعلَّمَ الكِسائيُّ العلمَ عَلى الكبرِ، وكانَ سَببُ تَعلُّمِهِ أَنَّهُ جاءَ يَوماً وقَدْ مَشَى حَتَى أَعيا، فَجلسَ إلى قَومٍ فيهِمْ فَضلٌ، وكانَ يُجالسُهُمْ كثيراً فقالَ:

ـ قد عُيِّيتُ.

فَقالوا لَهُ: تُجالِسُنا وأَنْتَ تُلحنُ؟!

فقالَ: كيفَ لَحنتُ؟

قالوا: إنْ كُنتَ أَردْتَ مِنَ التَّعبِ، فَقُلْ: أُعييتُ، وإنْ كُنتَ أَردْتَ انقطاعَ الحيلةِ والتَّحيُّرَ في الأَمرِ، فَقُلْ: عُييتُ (مُخَفَّفةً).

فَأَنِفَ مِنْ هذِهِ الكلمةِ وقامَ مِنْ فَورِهِ، فَسأَلَ عَمَّنْ يُعلِّمُ النَّحوَ، فَأَرشدوهُ إلى «مُعاذ الهرَّاءِ»[1]، فَلزِمَهُ حَتَّى أَنفذَ ما عندَهُ، ثُمَّ خرجَ إلى البَصرةِ فَلَقيَ «الخليلَ بنَ أَحمدَ»[2]، وجلسَ في حَلقَتِهِ، فقالَ رَجلٌ مِنَ الأَعرابِ:

---

(1) معاذ الهراء: هو أبو مسلم معاذ بن الهراء النحوي الكوفي كان مولى لمحمد بن كعب القرظي، وكان حافظاً راويةً عالماً بالقراءات، صنف في النحو كثيراً. كان يتشيع لآل البيت، وعاش عمراً مديداً، قيل: إنه عاش 190 سنة.

(2) الخليل بن أحمد الفراهيدي صاحب العربية وواضع علم العروض، أحد الأعلام العرب المشهورين. تتلمذ على يد سيبويه والأصمعي، وعاش في البصرة. توفي سنة 175هـ.

ـ تَركتَ أَسداً وتَميماً وعِندَهُمُ الفَصاحةُ، وجئتَ إِلى البَصرةِ؟

وقالَ للخَليلِ بنِ أَحمدَ: مِنْ أَينَ علمُكَ؟

قالَ: مِنْ بوادي الحجازِ ونَجدٍ وتُهامةَ.

فَخرجَ الكِسائيُّ وأَنفذَ خَمسَةَ عَشرَةَ قَنينَةَ حبر في الكتابَةِ عَنِ العربِ سِوَى ما حَفِظَ، ولَمْ يَكُنْ لَهُ هَمٌّ غيرَ البَصرةِ والخليلِ، فَوجدَ الخليلَ قَدْ ماتَ وجلسَ مَوضِعَهُ يونُسُ بنُ حبيبٍ البَصريُّ النَّحويُّ، فَجَرَتْ بَينَهُما مَسائِلُ أَقرَّ لَهُ فيها يونُسُ».

كَما لَقيَ «الكِسائيُّ» في البَصرةِ المُحدِّثَ المَشهورَ «سُليمانَ بنَ أَرقَمَ»[1]، وسَمعَ منهُ، ثُمَّ عادَ بَعدَ ذَلِكَ إِلَى الكوفَةِ، وأَتَمَّ تَحصيلَهُ العلميَّ عَلى أَيدي كبارِ عُلمائِها، فَسَمعَ مِنْ «حمزَةَ الزَّياتِ»[2]، و«أَبي جعفرٍ الرُّؤاسيِّ»[3]؛ الَّذِي تُنسبُ إِليهِ إِحدَى القِراءاتِ السَّبعِ، ومِنْ مُحدِّثِ الكوفَةِ في عَصرِهِ الشَّهيرِ «سَفيانَ بنِ عُيينَةَ»[4]، كَذلِكَ سَمعَ مِنْ «أَبي بَكرٍ بنِ

(1) سليمان بن أرقم: كان من كبار علماء البصرة ومحدثيها، وكان مولى للنضير البصري، وهو متروك الرواية عند علماء الجرح والتعديل.

(2) حمزة الزيات: هو أبو عمارة حمزة بن حبيب بن عمارة الكوفي، كان مولى لآل عكرمة بن ربعي التميمي، وكان أحد القراء السبعة، وعنه أخذ الكسائي علم القراءات، وسمي بالزيات لأنه كان يتاجر بالزيت.

(3) أبو جعفر الرؤاسي النيلي ابن أخي معاذ الهراء، وهو أستاذ الكسائي، وهو أول من وضع نحو الكوفيين، وإذا قال سيبويه في كتابه: قال الكوفي، فهو يقصد الرؤاسي. وسمي بالرؤاسي لكبر رأسه، وبالنيلي لأنه كان ينزل النهر.

(4) أبو محمد سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي وقيل: إنه كان مولى لبني هاشم من محدثي الكوفة ومكة. ولد في الكوفة سنة 107هـ، وتوفي في مكة سنة 198هـ. كان إماماً حجةً ومحدثاً فقيهاً.

عَيّاش»[1] أحدِ مُحدِّثي الكوفَةِ وعُلمائِها المَشهورينَ.

وبِذلكَ تَمثَّلَتْ في شَخصيَّةِ «الكِسائيِّ» ثقافَةُ عَصرِهِ مِنْ علومِ اللُّغةِ والفقهِ والحديثِ والقراءاتِ والتَّفسيرِ وغيرِها، إلَّا أَنَّهُ بَرعَ بَراعةً خاصَّةً بِعلمِ النَّحوِ حَتَّى فاقَ عُلماءَ اللُّغةِ في عَصرِهِ، فَفاقَ واضعَ علمِ النَّحوِ سيبويه نَفسَهُ.

وذَكَرَ العُلماءُ أَنَّ «أَبا حمزةَ» سُمِّيَ بِالكِسائيِّ لأَنَّهُ كانَ يخرجُ إِلى النَّاسِ مُلتفّاً بِكساءٍ.

❋ ❋ ❋

وما يَكادُ يُعرفُ «الكِسائيُّ» في الكوفَةِ والبَصرةِ كَنَحويٍّ بارعٍ وضَليعٍ بِعلومِ اللُّغةِ العربيَّةِ حَتَّى وَصلَ صيتُهُ إِلى خَليفَةِ المُسلمينَ في بَغدادَ فَاسْتَدعاهُ للاستفادَةِ مِنْ علمِهِ ومَعارفِهِ، ويَذكُرُ بَعضُ المُؤرِّخينَ أَنَّهُ استُدعيَ مِنْ قِبلِ الخليفَةِ المَهديِّ لِتعليمِ وَلَدِهِ الرَّشيدِ، وبَعضُهُمْ يَذكُرُ أَنَّهُ دُعيَ مِنْ قبلِ الخليفَةِ الرَّشيدِ، وهوَ الأَصَحُّ، فَيذكُرُ العَلَّامَةُ بَهاءُ الدِّينِ العامليُّ في كتابِهِ «الكَشكولِ» رِوايَةً تُفيدُنا أَنَّ هارونَ الرَّشيدَ سَمعَ عَنْ سعةِ علمِ الكِسائيِّ فاستدعاهُ إِلى بَغدادَ أَكثرَ مِنْ مَرَّةٍ، فَلَمْ يُجِبْهُ الكِسائيُّ في بِدايَةِ الأَمرِ حَتَّى جَمَعَتْ بينَهُما الصُّدفَةُ.

يَقولُ العامليُّ: «كانَ الرَّشيدُ قَدْ أَمرَ بِاسْتحضارِ الكِسائيِّ مِنَ الكوفَةِ مِراراً، وهوَ يَعتذرُ مِنْهُ، فَاحتاجَ الكِسائيُّ لِلسَّفرِ إِلى بَغدادَ لأَمرٍ مُهِمٍّ عرضَ لَهُ، فَلمَّا دَخلَها وكانَ رَجلاً جَسيماً عَلى هيئَةِ أَهلِ السَّوادِ (أَي أَهلِ الباديَةِ)، والخليفَةُ في ذَلكَ الوَقتِ مَعَ وَزيرِهِ في

(1) هو أبو بكر سالم بن عياش بن سالم، كان مولى لبني أسد بن خزيمة في الكوفة. من أرباب الحديث ومن العلماء المشهورين. توفي سنة 193هـ.

مَجلسِ شُربِهِ، وكانَ قَدْ أَنفذَ مَنْ يُحضروا بَعضَ أَهلِ السَّوادِ ليهزؤوا بِهِ، ويَسخَروا مِنهُ، فَظُفِرَ بِالكِسائيِّ، فَأُتيَ بِهِ، فَلَمْ يَشكَّ الرَّشيدُ أَنَّهُ مِنْ أَهلِ السُّخريَةِ، فقالَ: تَغَنَّ لَنا يا شَيخُ؟ فَأَنشدَ الكِسائيُّ:

كَفَى حُزناً أَنَّ الشَّرائِعَ عُطِّلَتْ وأَنَّ ذَوي الأَلبابِ في النَّاسِ ضُيَّعُ
وأَنَّ مُلوكَ الأَرضِ لَمْ يُحظَ عِندَهُمْ مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَنْ يُغَني ويَصفعُ

فقالَ الرَّشيدُ: مِنْ أَيِّ البِلادِ أنتَ يا شَيخُ؟

فقالَ: مِنَ الكوفَةِ.

فقالَ: كيفَ تَركتَ الكِسائيَّ؟

قالَ: في صَفاءِ عيشٍ عندَ حضرَةِ أَميرِ المُؤمنينَ.

فَنهضَ الرَّشيدُ يَعتذِرُ إِليهِ، وقالَ لَهُ: أُريدُ أَنْ تُعلِّمَ وَلَديَّ الأَمينَ والمأمونَ، فَاسْتعفاهُ، فَلَمْ يعفِهِ، وأَخلَى لَهُ دارَ التَّعليمِ، وما يزالُ مُكرَّماً عندَهُ.

وقد أُعجبَ بِعلمِ الكِسائيِّ أَيَّما إِعجابٍ. ولاقَى الكِسائيُّ عِندَهُ مِنَ الحَفاوَةِ والتَّكريمِ والاحترامِ ما لَمْ يَلقَهُ عالمٌ آخرُ عندَهُ، فَلا يَعقدُ الرَّشيدُ مَجلساً لِلعُلماءِ أَو النُّدماءِ إِلَّا والكِسائيُّ يَحضرُ فيهِ، إِلى أن صارَ له مَجلسُهُ العلميُّ الَّذِي يَحضرُهُ العُلماءُ والتَّلاميذُ.

وعندَما قَدمَ سيبويه مِنَ البَصرةِ إِلى بَغدادَ، دُعيَ لِمُناظرَةِ الكِسائيِّ، فَأَثبتَ الكِسائيُّ علمَهُ ودهاءَهُ وحِنكَتَهُ أَمامَهُ فَغلبَهُ في المُناظرَةِ[1]، فَاعتزلَ سيبويه النَّاسَ عَلى إِثرِها، وخَلَتِ

(1) قال الأصمعي: كان الكسائي يأخذ اللغة عن أعراب الحطمة. كانوا ينزلون قطربل وغيرها من سواد =

السَّاحةُ العلميَّةُ في علمِ النَّحوِ لِلكسائيِّ وتَلاميذِهِ عَلى طولِ البِلادِ وعَرضِها، وظَهرَ نَحوُ الكُوفيينَ عَلىَ نَحوِ البَصريينَ لأَوَّلِ مَرَّةٍ في تاريخِ المَدرسَتينِ. وكانَتْ تِلكَ المُناظرَةُ مُنعَطفاً هامّاً في تاريخِ علمِ النَّحوِ، حيثُ أَدَّتْ فيما بَعدُ إِلَى نُشوءِ مَدرسَةٍ بَغدادَ في علمِ النَّحوِ الَّتِي مازَجَتْ بينَ آراءِ المَدرستينِ عَلَى أيدي تَلاميذِ الكِسائيِّ وعَلى رأسِهِمْ «أَبو العبَّاسِ ثَعلبُ»، وتَلاميذ سيبويه وعَلى رأسِهِمْ «أَبو العبَّاسِ المُبرِّدُ».

❋ ❋ ❋

ناظرَ الكِسائيُّ في مَجلسِ الرَّشيدِ كبارَ فُقهاءِ عَصرِهِ كَالفقَيهينِ «أَبي يوسُفَ» و«مُحمَّدِ بنِ الحَسنِ» صاحِبي «أَبي حنيفَةَ النُّعمانِ». وصَرفَ عنايَتَهُما لِلاهتمامِ بِعلمِ النَّحوِ، وأَثبتَ لَهُما أنَّ بَعضَ الأَحكامِ الفَقهيَّةِ يَتغيَّر حُكمُها، إِذا اعتَرَى اللَّحنُ أَو الخَطأُ أَلفاظَها المُتَعلِّقَةَ بِها، حيثُ يَتغيَّرُ ـ تبعاً لِذَلِكَ ـ مَعناها والمَقصودُ مِنها.

ويذكرُ الحافِظُ اليَغموريُّ في كتابِهِ «نورِ القَبسِ» حكاياتٍ عَنْ ذَلِكَ، نَذكرُ مِنها:

«دخلَ أَبو يُوسُفَ الفَقيهُ عَلى الرَّشيدِ وعِندهُ الكِسائيُّ يُحدِّثُهُ، فقالَ:

ـ يا أَميرَ المُؤمنينَ، قَدْ سُعِدَ هذا الكوفيُّ بِكَ وشَغلَكَ!

فقالَ الرَّشيدُ: النَّحو.. أَستعينُ بِهِ عَلى القرآنِ والشِّعرِ.

فقالَ الكِسائيُّ: إِنْ رَأى أَميرُ المُؤمنينَ أَنْ يَأذَنَ لي بِجوابي عَنْ مَسأَلةٍ في الفقهِ؟

= قرى بغداد، فلما ناظر سيبويه استشهد بكلامهم واحتج بلغتهم عليه. (من كتاب «نور القبس» لليغموري).

فَضحكَ الرَّشيدُ وقالَ: أَبلَغتَ ـ يا كِسائيُّ ـ إلى هذا؟ قُلْ.

فقالَ الكِسائيُّ: ما تَقولُ في رَجلٍ قالَ لِامرأَتِهِ: أَنتِ طالقٌ إِنْ دَخلتِ الدَّارَ؟

قالَ أَبو يُوسُفَ: إِذا دَخلَتْ طَلَقَتْ.

فقالَ الكِسائيُّ: أَخطأَتَ! إِذا فَتحتَ (أَنْ) فَقَدْ وَجبَ الأَمرُ لأنَّ (أَنْ) بِالفَتحِ لِما قَدْ كانَ[1]، وإِذا كَسرتَ (إِنْ) فَلَمْ يَقَعْ بَعدُ. فَنظرَ أَبو يُوسُفَ بعدَ ذَلِكَ في النَّحوِ».

ومِنْ هذِهِ الحكاياتِ أَيضاً أَنَّهُ اجتمعَ يَوماً بِالفقيهِ «محمَّدِ بنِ الحسنِ» في مَجلسِ الرَّشيدِ، فقالَ الكِسائيُّ: مَنْ تَبَحَّرَ في علمٍ يُهدَى إِلى جميعِ العُلومِ.

فقالَ لَهُ محمدُ بنُ الحسنِ: ما تَقولُ فيمَنْ سَها في سُجودِ السَّهوِ، هَلْ يَسجدُ مَرَّةً أُخرَى؟

فقالَ الكِسائيُّ: لا.

قالَ: لِماذا؟

قالَ: لأَنَّ النُّحاةَ يَقولونَ: التَّصغيرُ لا يُصغَّرُ[2].

وكانَ الشَّاعرُ المَشهورُ «المُفضَّلُ الضَّبيُّ»[3] مَشهوداً لَهُ بِالضُّلوعِ بِاللُّغةِ العربيَّةِ ومَعرفَةِ

---

(1) وهو يقصد أنه عندما تفتح همزة أن يكون المعنى قد وقع أصلاً فلا يجوز تعليق الطلاق بها، وبالتالي لا يقع لو أطلقه بهذا المعنى.

(2) فهو قد قدر عدم السجود للسهو في سجود السهو لأن السهو لا يجبر بالسهو قياساً على القاعدة النحوية بأن التصغير لا يصغر.

(3) هو أبو العباس المفضل بن محمد بن يعلى من بني ثعلبة بن ضبة، كان راوية أديباً عالماً بالأخبار والشعر والعربية ومن علماء الكوفة. توفي 155هـ.

النَّحوِ والشِّعرِ وكلامِ العربِ، يَدخلُ عَلى الخليفةِ الرَّشيدِ فَيُحاجِجُهُ الرَّشيدُ بِعلمِ الكِسائيِّ. قالَ المُفضَّلُ الضَّبيُّ: «قالَ لي الرَّشيدُ: كَم اسمٍ في قولِهِ تَعالَى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ قُلتُ: ثَلاثَةُ أَسماءٍ يا أَميرَ المُؤمنينَ: أَوَّلُها: اسمُ اللهِ ﷻ، والثَّاني: اسمُ النَّبيِّ ﷺ، والثَّالثُ: اسمُ الكفرةِ، فَالياءُ والكافُ والياءُ المُتَّصلاتُ بِالسِّينِ للهِ ﷻ، والكافُ المُتَّصلَةُ بِالهاءِ للنَّبيِّ ﷺ، والهاءُ والميمُ لِلكفَرةِ.

قالَ الرَّشيدُ: كذا قالَ الشَّيخُ، وأَشارَ بيَدِهِ إِلى الكِسائيِّ».

وقَدْ أَحصَى المُؤرِّخونَ مُؤلَّفاتِ ومُصنَّفاتِ الكِسائيِّ، فَبلَغَتْ أَربعَةَ عشرَ مُؤلَّفاً فيما يَلي:

1 ـ كتابُ معاني القُرآنِ.

2 ـ كتابُ مُختَصرِ النَّحوِ.

3 ـ كتابُ القِراءاتِ.

4 ـ كتابُ العددِ.

5 ـ كتابُ النَّوادرِ الكبيرِ.

6 ـ كتابُ النَّوادرِ الأَوسطِ.

7 ـ كتابُ النَّوادرِ الأَصغرِ.

8 ـ كتابُ مَقطوعِ القُرآنِ ومَوصولِهِ.

9 ـ كتابُ اختلافِ العدد.

10 ـ كتابُ الهجاءِ.

11 ـ كتابُ المَصادرِ.

12 ـ كتابُ أشعارِ المعاياتِ وطرائِقِها.

13 ـ كتابُ الهاءاتِ المُكَنَّى بِها في القُرآنِ.

14 ـ كتابُ الحروفِ.

تُوفِّي الكِسائيُّ بِالرّي سنةَ (189) هجريَّةً، ماتَ هوَ والفقيهُ محمَّدُ بنُ الحَسنِ في يومٍ واحدٍ، وصَلَّى عليهِما الرَّشيدُ وقالَ:

«دَفَنتُ الفقهَ والنَّحوَ بِالرّي»، ورَثاهُما العالمُ الكبيرُ أَبو مُحمَّدٍ يَحيَى بنُ المُباركِ اليَزيديُّ بِقولِهِ:

أَسيتُ عَلى قاضي القُضاةِ مُحمَّد ... فَأَذرَفتُ دَمعي والفُؤادُ عَميدُ

وأَفلَقَني موتُ الكِسائيِّ بَعدَهُ ... وكادَتْ بي الأَرضُ الفَضاءُ تَميدُ

هُما عالِمانا أَودَيا وتَخرَّقا ... وما لَهُما في العالَمينَ نَديدُ

الأَسْئِلَةُ وَالْمُنَاقَشَةُ

1 ـ ماذا قالَ الإِمامُ الشَّافعيُّ وهوَ يَمدحُ علمَ الكِسائيِّ؟

2 ـ كيفَ كانَ حالُ العصرِ الَّذِي عاشَ فيهِ الكِسائيُّ؟

3 ـ عَلى ماذا يَدلُّنا حزنُ الرَّشيدِ عَلى موتِ الكِسائيِّ؟

4 ـ إِلى مَنْ يُنسَبُ الكِسائيُّ، وما أَصلُهُ؟

5 ـ مَنْ خالطَ الكِسائيُّ في الكوفَةِ، ومَتَى طلبَ النَّحوَ؟

6 ـ عَمَّنْ أَخذَ الكِسائيُّ عِلمَهُ؟

7 ـ كيفَ تَعرَّفَ الرَّشيدُ عَلى الكِسائيِّ؟

8 ـ ماذا قالَ الرَّشيدُ عندما ماتَ الكِسائيُّ والفقيهُ محمَّدُ بنُ الحسنِ؟

أَبو زكرياءِ الفرَّاءُ
أميرُ علم النَّحو
(144ـ 207هـ)

أَبو زكرياءِ الفرَّاءُ، أميرُ علمِ النَّحوِ، أَو قُلْ: أميرُ المُؤمنينَ في علمِ النَّحوِ، كما سَمَّاهُ الدَّارسونَ والمُؤرِّخونَ والناقدونَ قَديماً وحَديثاً، هوَ مِنْ عُلماءِ لُغَتِنا العربيَّةِ الَّذِيْن شَهدَ لَهُمُ التَّاريخُ بِالرِّيادةِ في علمِ النَّحوِ، لما كانَ لَهُ فَضلُهُ الواضحُ في ازدهارِ علمِ النَّحوِ الذي لاقَى نَهضةً واسعةً عَلى يَديهِ.

وهوَ أَحدُ كبارِ عُلماءِ المدرسةِ الكوفيَّةِ في النَّحوِ، وهوَ رَجُلُها الثَّاني بَعدَ أُستاذِهِ الكسائيِّ مُؤَسِّسِ تلكَ المدرسَةِ الَّتي نافَسَتْ مدرسَةَ البَصرةِ في زعامةِ علمِ النَّحوِ.

زَخرَتْ حياةُ «أَبي زكرياءِ الفرَّاءِ» العلميَّةِ بِالجدِّ والنَّشاطِ، والإِنجازاتِ الكبيرةِ، والبُحوثِ الَّتي شَكَّلَتْ رافداً جديداً يَصبُّ في مَسيرةِ علمِ النَّحوِ الَّذي استأثرَ اهتمامَ الخُلفاءِ والحُكَّامِ لِما فيهِ مِنْ حِفظِ اللُّغةِ وحمايَتِها مِنَ اللَّحنِ وشِبهِهِ، فَنالَ بِسبَبِ ذَلكَ منزلةً ساميَةً عندَ خَليفةِ المُسلمينَ، وكذلِكَ مكانةً عَظيمةً بينَ عُلماءِ عَصرِهِ، إِلى درجةٍ جعلَتْ أَهلَ الكوفةِ يَتباهونَ بِهِ، ويُفاخرونَ بِعلمِهِ بينَ النَّاسِ.

كما أَنَّهُ كانَ يَبذلُ العلمَ لِلنَّاسِ ولِطُلَّابِ المَعرفَةِ بِهمَّةٍ عاليَّةٍ لا تَعرفُ الكَللَ أَو المَللَ، ويَجودُ بِهِ مِنْ غيرِ مُقابلٍ، أَوِ اشْتراطِ أَجرٍ أَو عَطاءٍ عَلى تَلاميذِهِ أَو سامعيهِ، فَكانَ يَبتغي الأَجرَ والثَّوابَ مِنَ رَبِّهِ ﷻ، بِنيَّةٍ خالصَةٍ مُخلَصةٍ لِوَجهِهِ ﷻ، فَرزَقهُ اللهُ الرّفعةَ والسُّموَّ، والقَناعةَ والرِّضا في حياتِهِ، والتَّواضُعَ والإِحسانَ لِكُلِ باغي علمٍ ومَعرفةٍ، فَأَحبَّهُ النَّاسُ، وتَسابَقَ أَبناءُ الحُكَّامِ إِلى خَدمتِهِ إِجلالاً واحتراماً وتَقديراً لِعلمِهِ الَّذي يَنفعُ بِهِ العبادَ، حَتَّى إِنَّ الخليفَةَ العباسيَّ «المَأمونَ» كانَ يَتواضعُ لَهُ، ويَتودَّدُ إِليهِ، رغمَ ما عُرِفَ بِهِ ـ يَعني: الخليفةَ ـ مِنْ حَزمٍ وشِدَّةٍ مَعَ النَّاسِ، وخَصَّصَ لَهُ داراً خاصَّةً بِهِ لِيَجتمعَ إِليهِ النَّاسُ يَستفيدونَ مِنْ علمِهِ، وكذِلكَ الورَّاقونَ لِيكتبوا في الرقاعِ ما يُمليهِ عليهِمْ مِنْ علومِهِ ومَعارفِهِ، وأَفردَ لَهُ الخَدمَ لِكَي لا يَنشغلَ عَنِ العلمِ والتَّصنيفِ بِشيءٍ مِنْ حاجاتِهِ الدُّنيويَّةِ، فَتوافدَ إِليهِ النَّاسُ مِنْ كُلِّ حدبٍ وصَوبٍ، وقَصدَهُ العُلماءُ والقُضاةُ، وقيلَ: إِنَّهُ كانَ يَجتمعُ إِليهِ في تِلكَ الدَّارِ ثَمانونَ قاضياً مِنْ قُضاةِ المُسلمينَ، يُملي عليهِمْ بِتوجيهٍ مِنَ الخَليفةِ «المأمونِ» قَواعدَ النَّحوِ، ومَبادئَ اللُّغةِ.

وإِضافةً إِلى كونِهِ عالماً مُتَخصِّصاً بِاللُّغةِ والنَّحوِ، كانَ مُتكلِّماً فيلسوفاً وفَقيهاً مُتَمكِّناً مِنْ علومِ الشَّريعةِ والفَلسفةِ والمَنطقِ، ولَهُ في هذِهِ العُلومِ جُهودُهُ وإِسهاماتُهُ الَّتي ذَكرَها وأَشارَ إِليها المُؤرِّخونَ، وأَشادَ بِها النُّقادُ والدَّارسونَ القُدماءُ والمُحدثونَ، وحَسبُهُ لِلدلالةِ عَلى فَضلِهِ العلميِّ، ما شَهدَ لَهُ بِهِ أَحدُ مُعاصريهِ مِنَ العُلماءِ ـ وهوَ أَبو العبَّاسِ ثعلب ـ، عندما قالَ: «لولا الفرَّاءُ لَما كانتْ عربيَّةٌ». وما نَعتَهُ بِهِ المُؤرِّخُ الكبيرُ «الخطيبُ البَغداديُّ» في تاريخِ بَغداد: «كانَ يُقالُ: الفرَّاءُ أَميرُ المُؤمنينَ في النَّحوِ».

فَتعالَوا معاً لِنتعرَّفَ عَلى أَهمِّ معالمِ حياةِ «أَبي زكرياءِ الفرَّاءِ» في الصَّفحاتِ التَّاليَةِ.

❋ ❋ ❋

هوَ أَبو زَكريا يَحيَى بنُ عبدِ اللهِ بنِ مَنظورٍ الدَّيلميُّ الكُوفيُّ، مَولَى بَني أَسدٍ[1] أو بَني مِنْقَرٍ[2] فَهوَ مِنَ الموالي، ومِنْ أَصلٍ غيرِ عربيٍّ، جاءَ آباؤُهُ وأَجدادُهُ مِنْ بِلادِ الدَّيلمِ[3] بَعدَ الفَتحِ الإِسلاميِّ لِبلادِ فارس وما جاورَها، ونزلوا الكوفةَ وسَكنوا بِها ووالَوا بَني أَسدٍ أَو بَني مِنْقَرٍ استناداً لِما ذكرَهُ المُؤرِّخونَ، وكانَ أَبوهُ «عبدُ اللهِ» مِنْ أَنصارِ الإِمامِ «الحُسينِ بنِ عَليِّ بنِ أَبي طالبٍ»، ومِنَ القِلَّةِ القَليلةِ مِنْ أَهلِ الكوفةِ الَّتي شاركَتْ في معركةِ كربلاءَ ودافعوا عَنِ الإِمامِ الحُسينِ، وقُطعَتْ يَدُهُ في تلكَ المَعركةِ.

ولِدَ «أبو زَكريا الفرَّاءُ» في الكوفةِ سنةَ (144) هجريَّةً، ونَشأَ وتَرعرعَ فيها، ودرجَ منذُ صغرِهِ عَلى مواظبةِ حضورِ مجالسِ العلمِ، وحفظِ القُرآنِ الكريمِ، وكانَتْ مدينةُ الكوفَةِ في تِلكَ الفترةِ الَّتي عاشَ فيها واحدةً مِنْ أَهمِّ المُدنِ العربيَّةِ والإِسلاميَّةِ الزَّاخرةِ بِالعلمِ، والعامرةِ بِالعُلماءِ، وكانَ النَّحوُ الكُوفيُّ يُقارعُ النَّحوَ البصريَّ ويُنافسُهُ عَلى تَزَعُّمِ إِمارَةِ النَّحوِ في العالمِ العربيِّ والإِسلاميِّ حينَها، ووَسطَ هذِهِ الأَجواءِ العلميَّةِ عكفَ «أبو زَكريا

(1) بنو أسد: نسبة إلى عمرو بن أسدٍ بن خزيمة، من أشهر القبائل العربية، سكن قسم كبير منهم الكوفة قبل الإسلام.

(2) بنو منقر: هم أحد بطون بني سعد، ينسبون إلى منقر بن عبيد بن مقاعس، وهو الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد بن مناة بن تميم بن مرة، وهي قبيلة كبيرة ينسب إليها كثير من الصحابة.

(3) بلاد الديلم: هي ما وراء بلاد فارس (إيران حالياً) بعد مدينة قزوين.

الفرَّاء» عَلى الاسْتِزادَةِ مِنْ عُلومِ الدِّينِ واللُّغةِ من كبارِ عُلماءِ الكوفَةِ، فَسمعَ في البِدايةِ مِنَ العالمِ والفقيهِ «مندل بن عليٍّ»[1]، ثُمَّ مِنَ المُحدِّثِ والرَّاويَةِ «قيسِ بنِ الرَّبيعِ»[2].

كما سمعَ مِنَ الحافظ الرَّاويَةِ «أبي الأَحوصِ الكوفيِّ»[3]، ثُمَّ لازمَ بعدَ ذَلكَ النَّحويَ الكبيرَ، ورئيسَ مدرسةِ الكوفةِ في علمِ النَّحوِ «أبا حمزةَ الكسائيَّ» وأَخذَ عنهُ علمَ النَّحوِ، وبَرعَ فيهِ بَراعةً كبيرةً جَعلَتْهُ في مُقدِّمةِ عُلماءِ النَّحوِ ليسَ في الكوفةِ فَحَسْب، وإِنَّما في سائرِ أَرجاءِ العالمِ العربيِّ والإِسلاميِّ، ولِعَظَمَةِ نُضوجِهِ الفكريِّ والعلميِّ، وحذاقَتِهِ في عُلومِ اللُّغةِ والنَّحوِ، لُقِّبَ بِـ «الفرَّاءِ»، ومِنَ المَعروفِ أَنَّهُ سُمِّي بِذَلكَ لأَنَّهُ كانَ يُفري الكلامَ ويغلبُ الخُصومَ تَشبيهاً لَهُ بِالفرَّاءِ الَّذي يُخيطُ الفراءَ، قالَ ابنُ الأَنباريِّ: إِنَّما سُمِّيَ ـ يَعني: أَبا زَكريا ـ لأَنَّهُ كانَ يُحسنُ نَظمَ المَسائِلِ، فَشُبِّهَ بِالخارزِ الَّذي يَخرزُ الأَديمَ، وقالَ بَعضُهُمْ: سُمِّيَ فَرَّاءً لِقَطعِهِ الخُصومَ بِالمَسائِلِ الَّتي يُعنَّتُ بِها، مِنْ قَولِهِمْ: فَرَى إِذا قَطعَ.

وقَدْ أَجمعَ العُلماءُ والمُؤرِّخونَ عَلى أَنَّ هذا اللَّقبَ قَدْ أُطلقَ عليهِ حينَ اكتملَ وبَدا

---

(1) مندل بن علي العنزي الكوفي، وأخوه «حبان بن علي» كانا من كبار علماء الكوفة ومن فقهائها المشهورين، استدعاهما الخليفة المهدي من الكوفة إلى بغداد لشهرتهما ولما دخلا عليه سألهما: أيكما مندل؟ وهما من بني عمرو بن عمرو إحدى كبرى قبائل بني عنزة. توفي مندل بن علي سنة 171هـ.

(2) قيس بن الربيع الأسدي الكوفي أحد أعلام الكوفة المشهورين، كان فقيهاً راويةً توفي سنة 168هـ، وجده الحارث بن قيس بن عميرة الأسدي الذي أسلم وعنده عدة نسوة فقال له النبي ﷺ: «اختر منهن أربعاً».

(3) أبو الأحوص الكوفي سلام بن سليم الحافظ العالم الراوية الثقة كان على قدر كبير من العلم والورع وأخذ عنه العلم جماعة. توفي سنة 175هـ.

نُضجُهُ العلميُّ، وغَلبُهُ لِلخصومِ في مسائِلِ العلمِ واللُّغةِ.

ورُبَّما الاتجاهُ العَقليُّ والفَلسفيُّ الَّذي يَعتمدُ عَلى القياسِ والاسْتنباطِ الَّذي انتَهجَهُ «أَبو زَكريا الفرَّاءُ» في فكرِهِ وبُحوثِهِ، كانَ لَهُ الأَثرُ الكبيرُ في تَفوُّقِهِ عَلى أَقرانِهِ مِنَ العُلماءِ، فَقَدْ كانَ يَميلُ إِلى الاعتزالِ، ويُحبُّ النظرَ في علمِ الكلامِ، فَأَكسبَهُ ذَلكَ قُوَّةَ الحجَّةِ، وجودةَ الرأي، وفَصلَ الخطابِ في المسائِلِ الَّتي تُعرضُ عليهِ، كَما سَمعَ إِلى شَيخِ نُحاةِ البَصرةِ «يونُسَ بنِ حبيبٍ»[1]، فَكانَ ضَليعاً في نَحوِ الكوفيينَ والبَصريينَ، ولكنَّهُ كانَ إِلى نَحوِ الكوفيِّنَ أَميَل، وعِندَما جَرَتِ المُناظرَةُ الشَّهيرَةُ بينَ سيبويه وزَعيمِ مدرسَة الكوفَةِ «أبي حمزةَ الكِسائيِّ»، كانَ «الفرَّاءُ» مِنْ جملَةِ عُلماءِ الكوفَةِ وتَلاميذِ الكِسائِيِّ الَّذِيْن ناظَروا سيبويه وسَبقُوا إِليهِ بِالأَسئلَةِ وأَحرجوهُ في تِلكَ المُناظرةِ، فَلمعَ اسمُ «الفرَّاءِ» بَعدها وذاعَ صيتُهُ كَنحويٍّ حاذقٍ بينَ النَّاسِ، ووَصلَ صيتُهُ العلميُّ إِلى الخليفةِ العبَّاسيِّ المَأمونِ، فَاستَدعاهُ مِنْ أَجلِ تَأديبِ ابنيهِ وتَعليمِهِما.

❁ ❁ ❁

عندما ماتَ «أَبو حمزةَ الكِسائِيُّ» سنةَ (189) هجريَّةً، خلفَهُ «الفرَّاءُ» في زَعامةِ مَدرسَةِ الكوفةِ في علمِ النَّحوِ، وصارَتْ إِليهِ دولَةُ النَّحوِ في الكوفةِ، يُفاخرُ أَهلُ الكوفَةِ بِعلمِهِ، قالَ ياقوتُ الحمويُّ في كتابهِ «مُعجمِ الأُدباءِ»: حدَّثني أَبو الحُصينُ البجليُّ قالَ: تَقولُ

(1) يونس بن حبيب: حكى عنه سيبويه في كتابه وهو أعجمي الأصل ولد سنة 94هـ وتوفي سنة 182 وكانت حلقته بالبصرة يقصده العلماء وطلاب العربية وفصحاء الأعراب والبادية.

أَهلُ الكوفة: لنا ثلاثةُ فُقهاءَ في نَسَقٍ لَمْ يُرَ مِثلُهُمْ بينَ النَّاسِ: أَبو حنيفةَ وأَبو يوسُفَ ومُحمَّدُ بنُ الحسنِ[1]، ولَنا ثلاثةُ نَحويينَ: أَبو حمزةَ الكِسائيُّ، وأَبو زكرياءِ يَحيَى بنُ زيادٍ الفرَّاءُ، وأَبو العبَّاسِ أحمدُ بنُ يَحيَى ثَعلبُ.

وفي بَغدادَ اكتسبَ «الفرَّاءُ» شُهرةً واسعةً، ونالَ مَكانَةً ساميَةً عندَ الخليفةِ المَأمونِ، ومِنْ شدَّةِ إعجابِ المأمونِ بِعلمِه، أمرَ بِتخصيصِ حجرةٍ خاصَّةٍ مِنْ دارِ الخلافةِ له، وأفردَ لهُ فيها الجواري والغُلمان لِيَقوموا بِخدمتِهِ حتَّى لا يَعوقَهُ شَيءٌ عَنِ البَحثِ والتَّصنيفِ، فَكانَ كبارُ الورَّاقينَ في بَغدادَ يَجتمعونَ إِليهِ في تلكَ الحجرةِ ويُملي عليهِمْ مُؤلَّفاتِهِ ومُصنَّفاتِهِ. وعندما أنهى إِملاءَ كتابِهِ «الحدودِ» أمرَ المأمونُ بِوَضعِ نسختِهِ الأُولَى الَّتي خَطَّها الوَرَّاقونَ في خزانةِ الكُتبِ الخاصَّةِ بِدارِ الخلافةِ.

أَمَّا عَنْ سَببِ اتِّصالِ «الفرَّاءِ» بِالخليفَةِ المَأمونِ فهو ما ذَكرَهُ المُؤرِّخونَ، أَنَّ «الفرَّاءَ» لَمَّا قَدمَ بَغدادَ، اجتمعَ فيهِ المُتكلِّمُ المَشهورُ «ثُمامةُ بنُ الأَشرسِ النميريُّ المُعتزليُّ» ـ وكانَ مِنْ خاصَّةِ العُلماءِ عندَ المأمونِ ـ يَوماً وهوَ لا يَعرفُ شَخصَهُ، يَقولُ ثُمامةُ: «فَرأَيتُ صورةَ أديبٍ وأُبَّهةَ أدبٍ، فَجلستُ إِليهِ وحَدَّثتُهُ عَنِ اللُّغةِ فَوجدتُهُ بَحراً، وعنِ النَّحوِ فَشاهدتُهُ نَسيجَ وَحدِهِ، وعَنِ الفقهِ فَوجدتُهُ فَقيهاً عارِفاً بِاختلافِ القَومِ، وفي النُّجومِ ماهراً، وبِالطِّبِ بارعاً، وبِأَيَّامِ العربِ وأَخبارِها حاذقاً، فقلتُ لَهُ: ومَنْ تَكونُ، وما أَظُنُّكَ إِلَّا الفرَّاءَ؟

(1) هم كبار أئمة المذهب الحنفي في الفقه الذي أسسه أبو حنيفة النعمان في الكوفة، وقد كان الفقيه محمد بن الحسن ابن خالة أبي زكرياء الفراء.

فقالَ: أَنا هوَ. قالَ: فَدخلتُ فأعلمتُ أميرَ المُؤمنينَ بِمكانِهِ فَاسْتَحضرَهُ، وكانَ سَببَ اتِّصالِهِ بِهِ».

وقَدْ عظُمَ أَمرُ «الفرَّاءِ» وعلا قَدرُهُ في الدَّولةِ، حتَّى تَسابقَ تلميذاهُ (ابنا المَأمونِ) إِلى تَقديمِ نعلِهِ إِليهِ لَمَّا نَهضَ لِلخروجِ، ثُمَّ اصطَلَحا عَلى أنْ يُقدِّمَ كُلٌّ مِنهُما فَردةً، فبلغَ ذَلكَ المأمونَ، فاسْتدعاهُ وقالَ لهُ:

ـ مَنْ أَعزُّ النَّاسِ؟

قالَ: ما أَعرفُ أَعزَّ مِنْ أَميرِ المُؤمنينَ.

قالَ المأمونُ: بَلَى..! مَنْ إِذا نَهضَ تَقاتَلَ على تَقديمِ نَعلِهِ وَلِيا عهدِ المُسلمينَ، حَتَّى رَضيَ كُلُّ واحدٍ أَنْ يُقدِّمَ لَهُ فَردةً حرصاً عليها.

وقَدْ رُويَ عنِ ابنِ عبَّاسٍ أَنَّهُ أَمسكَ لِلحسنِ ولِلحُسينِ رضي الله عنهم أجمعين رِكابَيهِما حينَ خَرجا مِنْ عِندِهِ، فقالَ لَهُ بَعضُ مَنْ حضرَ: أَتُمسِكُ لِهذينِ الحدثينِ رِكابَيهِما وأَنتَ أَسنُّ مِنهُما؟

فقالَ: اسكُتْ يا جاهل، لا يَعرفُ الفَضلَ لأَهلِ الفَضلِ إِلَّا ذَوو الفَضلِ.

فقالَ المأمونُ لِلفرَّاءِ: لو مَنَعتَهُما لأَوجَعتُكَ لوماً وعتباً، وأَلزَمتُكَ ذَنباً، وما وَضعَ ما فَعلا مِنْ شَرَفِهِما، بَلْ رَفعَ مِنْ قَدرِهِما، وبيَّنَ عَنْ جوهرِهِما، وقَدْ ظهَرَتْ لي مَخيلَةُ الفراسَةِ بِفعلِهِما، فَليسَ يَكبرُ الرَّجلُ وإِنْ كانَ كبيراً عَنْ ثلاثٍ: تَواضُعِهِ لِسُلطانِهِ ووالدِهِ

ومُعلِّمِهِ العلمَ، وقَدْ عَوضْتُهُما بِما فَعلا عشرينَ أَلفَ دينارٍ، ولَكَ عشرة آلافِ درهَمٍ عَلَى حُسنِ أَدبِكَ لَهُما.

❋ ❋ ❋

لَقَدْ كانَ «الفرَّاءُ» إِلى جانبِ عِلمِهِ الجَمِّ جَمَّاعاً لِلصفاتِ الحسنةِ والأَخلاقِ الحميدةِ، وَرعاً زاهداً في الدُّنيا وكَريماً سَخيّاً، ومِمَّا يَدلُّ عَلى كرمِهِ وسَخائِهِ، أَنَّهُ بعدَ إِقامتِهِ في بَغدادَ كانَ يَذهبُ إِلى الكوفةِ في نهايَةِ كُلِّ سنةٍ ويُقيمُ فيها أربعينَ يَوماً يَصلُ خِلالَها أَقرباءَهُ وأَصدقاءَهُ ويَبرُّهُمْ ويُنفقُ عَليهِمْ ما جَمعَهُ طوالَ سَنتِهِ مِنْ أَموالٍ.

ومِمَّا يَدلُّ عَلى زُهدِهِ وتواضُعِهِ، أَنَّهُ كانَ يَتنافسُ مَعَ الأَحمرِ[1]، ـ وكِلاهُما قَدْ تَتلمذا عَلى الكسائيِّ ـ عَلى استقطابِ النَّاسِ لِسماعِ دروسِهِما في النَّحوِ في بَغدادَ، فَكانَ النَّاسُ يَرتاحونَ إِلى مجلسِ «الفرَّاءِ» أكثرَ مِنْ مجلسِ الأَحمرِ، ويَذكُرُ بِهذا الصَّددِ ياقوتُ الحمويُّ في مُعجمِ الأُدباءِ عَلَى لِسانِ محمَّدِ بنِ الجَهمِ السمريِّ، قالَ:

«كُنَّا إِذا أَتينا الأَحمرَ تَلقَّانا الخدمُ فَندخلُ قَصراً مِنْ قُصورِ المُلوكِ فيهِ مِنْ فُرشِ الشِّتاءِ في وَقتِهِ ما لَمْ يَكُنْ مِثلُهُ إِلَّا دارُ أَميرِ المُؤمنينَ، ويَدفَعُ إِلينا دفاترَ الكاغدِ والجلود قَدْ

(1) هو أبو الحسن علي بن الحسن وقيل: علي بن المبارك، كان من كبار علماء الكوفة في اللغة والنحو وأعظم تلاميذ الكسائي هو والفراء، وكان مؤدباً لابن الخليفة الأمين. توفي سنة 194هـ وكانت بينه وبين الفراء منافسة وجفاء، وكان مقدماً على الفراء في حياة الكسائي، ولكن قدم عليه الفراء بعد وفاة الكسائي.

صُقلَتْ، والمحابرَ المَخروطةَ والأَقلامَ والسَّكاكينَ، ويَخرجُ إِلينا وعليهِ ثيابُ المُلوكِ ينفَحُ منها رائِحةُ المِسكِ والبَخورِ، فَيلقانا بِوجهٍ مُنطلقٍ، وبُشرٍ حسنٍ حَتَّى نَنصَرِفَ، ثُمَّ نَصير إِلى الفرَّاءِ فَيخرجُ إِلينا مُعبساً قَدِ اشتملَ بِكسائِهِ فَيجلسُ لَنا على بابِهِ ونجلسُ في التُّرابِ بينَ يَديهِ فَيكونُ أَحلى في قلوبِنا مِنَ الأَحمرِ وجميلِ فعلِهِ».

ورغمَ ما كانَ الأَحمرُ يُكنُّهُ في قَلبِهِ مِنْ تنافسٍ وجفاءٍ حادٍّ لِلفرَّاءِ، إِلَّا أَنَّ الفرَّاءَ كانَ لا يَجدُ في قَلبِهِ غَضاضَةً مِنْ ذَلكَ، فَعندما ماتَ الأَحمرُ، قيلَ لِلفرَّاءِ: إِنَّ الأَحمرَ نُعيَ إِلى أَهلِهِ، فَتوجَّع وترَّحمَ عليهِ وقالَ: «أَما واللهِ قَدْ عَلمتُهُ صدوقاً سَخيّاً ذَكيّاً عالِماً ذا مروءةٍ ومودَّةٍ».

فقيلَ لهُ: أَينَ هذا مِمَّا كُنتَ تقولُ فيهِ بِالأَمسِ؟

قالَ: واللهِ ما يَمنعني ما كانَ بيني وبينَهُ أَنْ أَقولَ فيهِ الحقَّ، وما تَعدَّيتُ فيهِ قَطُّ في قولٍ ولا تَحرَّيتُ فيهِ إِلَّا الصِّدقَ قَبلُ والآنَ.

❋ ❋ ❋

كانَ «الفرَّاءُ» بَحراً واسعاً في العلمِ، وذا معرفَةٍ ودرايَةٍ راسخةٍ في علمِ النَّحوِ، حَتَّى قالَ فيهِ ثَعلبُ: لولا الفرَّاءُ لَما كانَتْ عربيَّةٌ؛ لأَنَّهُ خَلَّصَها وضَبَطَها. ولولا الفرَّاءُ لَسقَطَتِ العربيَّةُ لأَنَّها كانَتْ تُتنازعُ ويَدَّعيها كُلُّ مَنْ أَرادَ، ويَتكلَّمُ النَّاسُ فيها عَلى مَقاديرِ عُقولِهِمْ وقَرائِحِهِمْ فَتذهبُ.

صَنَّفَ الفراءُ ما يُقاربُ العشرينَ مُؤلَّفاً وكتاباً في مُختلفِ العُلومِ نُجملُها فيما يَلي:

1 ـ كتابُ الحدودِ: وقَدْ أَلَّفَهُ بِناءً عَلى رَغبةِ المَأمونِ، ويَضمُّ خَمساً وثَلاثينَ حدّاً مِنْ حدودِ وقَواعدِ علمِ النَّحوِ.

2 ـ كتابُ معاني القُرآنِ: وقَدِ اجتمعَ إِليهِ جمعٌ غفيرٌ مِنَ النَّاسِ أَثناءَ إِملائِهِ، وفي تاريخِ بَغدادَ قالَ أَحدُهُمْ: فَأَردنا أَنْ نعدَّ النَّاسَ الَّذِيْن اجتمَعوا لِإِملاءِ كتابِ المَعاني فَلَمْ يضبَطْ، قالَ: فَعدَدنا القُضاةَ فَكانوا ثَمانينَ قاضياً، وهوَ في أَربعةِ أَجزاء، قالَ فيهِ أَبو العباسِ ثَعلبُ: «لَمْ يَعمَلْ أَحدٌ قبلَهُ، وما أَحسبُ أَنَّ أَحداً يَزيدُ عليهِ».

3 ـ كتابُ البَهيِّ: في اللغةِ والنَّحوِ، أَلَّفهُ لِعَبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ[1].

4 ـ كتابُ اختلافِ أهلِ الكوفةِ والبَصرةِ والشَّامِ في المَصاحفِ.

5 ـ كتابُ المَصادرِ في القُرآنِ.

6 ـ كتابُ اللُّغاتِ.

7 ـ كتابُ الوَقفِ والابتداءِ، ويَبحثُ في علمِ القِراءاتِ.

8 ـ كتابُ الجمعِ والتَّثنيَةِ في القُرآنِ.

9 ـ كتابُ النَّوادرِ، رواهُ سَلمةُ بنُ قاسمٍ.

---

(1) هو أبو العباس عبد الله الطبري، كان في شبابه شاعراً أريباً مقرباً من الخليفة المأمون، وكان المأمون يدعي تربيته ويسميه: غرس يدي، وكان ذا نجدة وسخاء يجل العلماء والأدباء. وقد كانت له دار مشهورة يؤمها العلماء والأدباء في بغداد، ولاه المأمون ولاية خراسان فسار في الناس سيرة حسنة، وكان من أبنائه العلماء والأدباء وأشهرهم الفقيه الإمام أبو الطيب طاهر بن عبد الله بن طاهر الطبري.

10 ـ كتابُ فَعلٌ وأَفعلُ.

11 ـ كتابُ النَّوادرِ، رَواهُ عنهُ سَلمَةُ بنُ قادمٍ.

13 ـ كتابُ آلَةِ الكاتبِ.

14 ـ كتابُ الفاخرِ.

15 ـ كتابُ المقصورِ والمَمدودِ.

16 ـ كتابُ يافع ويافعَة.

17 ـ كتابُ الأَيَّامِ واللَّيالي.

18 ـ كتابُ المُلازمِ.

19 ـ كتابُ ما تُلحنُ بِهِ العامَّةُ.

20 ـ إضافةً إِلَى كُتبِ: مُشكِلِ اللُّغةِ الكبيرِ والصَّغيرِ، وكتابِ الوَاوِ.

ماتَ «الفرَّاءُ» عَلى طريقِ مكَّةَ بَعدَ أنْ أَصابَهُ مرضٌ شَديدٌ أَلزمَهُ الفِراشَ عدَّةَ أَيَّامٍ، ومِنْ شِدَّةِ حرصِهِ عَلى العِلمِ يُقالُ إِنَّهُ ماتَ وتَحتَ رأسِهِ كتابُ سيبويه، كانَ يُطالِعُ فيهِ ويَحفظُ منهُ حَتَّى السَّاعاتِ الأَخيرةِ مِنْ حياتِهِ.

كانَتْ وَفاةُ الفرَّاءِ سنةَ (207) هجريَّةً، ماتَ ولَهُ مِنَ العُمرِ ثَلاثاً وستينَ سَنةً.

قالَ أَبو بكرٍ الأنباريُّ: «لو لَمْ يَكُنْ لأَهلِ بَغدادَ والكوفةِ مِنْ عُلماءِ العربيَّةِ إِلَّا الكِسائي والفراء لَكانَ لَهُمْ بِهِما الافتخارُ عَلى جَميعِ النَّاسِ إِذِ انْتَهَتِ العلومُ إِليهِما».

الأَسْئِلَةُ وَالْمُنَاقَشَةُ

1 ـ بِماذا زَخرَتْ حياةُ أبي زكرياء الفراء؟

2 ـ كيفَ كانَ يبذلُ الفرَّاءُ العلمَ للناسِ؟

3 ـ ما هوَ أصلُ الفرَّاءِ، وماذا كانَ أبوهُ؟

4 ـ مَنْ هُمُ العُلماءُ الَّذِيْن أَخذَ عَنهُمُ الفرَّاءُ العلمَ؟

5 ـ إِلى ماذا كانَ يَميلُ الفرَّاءُ، وماذا أكسَبَهُ ذَلِكَ؟

6 ـ ماذا خَصَّصَ المأمونُ لِلفرَّاء، وماذا أفردَ لَهُ، ولِماذا؟

7 ـ ماذا قالَ الفرَّاءُ عندما نُعيَ إِليهِ الأَحمرُ، وعلى ماذا يَدلُّ ذَلكَ؟

8 ـ ماذا قالَ ثعلب في كتابِ المعاني لِلفرَّاءِ؟

أبو العباس المُبرِّد
شَيخ النُّحاة
(210 ـ 285هـ)

أَبو العباس المُبردُ، شيخُ النُّحاةِ، وأَعظمُ النَّحويينَ والمُتكلِّمينَ والفُصحاءِ الَّذِيْنَ انتصَروا لِلُّغةِ العربيَّةِ، وأَوضَحوا خَفيَّها، وفَكُّوا أَسرارَها، وحَلُّوا أَلغازَها، بَعدَ سيبويه بِلا مُنازعٍ أَو مُنافِسٍ عَلى الإِطلاق، ويُمكِنُنا عَدُّهُ في المرتبَةِ الثَّالثَةِ مِنْ حيثُ الأَهميَّةُ في مَجالِ علمِ النَّحوِ، بَعدَ أَبي الأَسودِ الدُّؤَليِّ وسيبويه، فَهوَ انتَصرَ لِمذهَبِ البَصريينَ عَلى خُصومِهِ الَّذِي كانَ المذهبَ الأُمَّ في علمِ النَّحوِ[1]، وتَمكَّنَ مِنَ المَزجِ بينَ آراءِ مدرستِهِ وآراءِ مدرسَةِ الكُوفيينَ، وأَسَّسَ ما يُعرفُ بِمدرسَةِ البَغداديينَ لأَوَّلِ مرَّةٍ في تاريخِ علمِ النَّحوِ، فَكانَتْ مدرسةُ بغدادَ في علمِ النَّحوِ ثمرةً لِجهودِ المُبرِّدِ وكِفاحِهِ الطَّويلِ ضِدَّ مُنافسيهِ الكوفيينَ.

خرَّجَ أَبُو الْعَبَّاسِ جيلاً مِنَ النُّحاةِ وعُلماءِ العربيَّةِ كانَ لَهُمْ أَثرُهُمُ البارزُ، ودورُهُمُ

(1) لقد كانت هذه الأمنية هم سيبويه فمات دون أن يحققها بعد أن تآمر عليه الكسائي وأصحابه، فكان المبرد أول من انتصر لمذهب البصريين على مذهب الكوفيين ومازج بينهما.

الكبيرُ في ازدهارِ علومِ اللُّغةِ العربيَّةِ مِنْ نَحوٍ وصَرفٍ وأَدبٍ، وفي انتشارِها بينَ النَّاسِ. وكَذلِكَ كانَ لَهُمْ فَضلُهُمُ الواضحُ في تأديبِ أَبناءِ الخُلفاءِ والولاةِ والفُضلاءِ، كما كانَ لِبعضِهِمْ تَأثيرُهُ اللامعُ في الحياةِ الاجتماعيَّةِ والثَّقافيَّةِ والسِّياسيَّةِ، ودورُهُ الرِّياديُّ في المُجتمعِ والدَّولةِ.

وفَضلاً عَنْ ذَلكَ؛ كانَ «أَبو العباسِ المُبرِّدُ» عالماً موسوعيّاً لَهُ في كُلِّ فَنٍّ نَصيبٌ، وفي كُلِّ علمٍ قَدمٌ، وكانَ مِنْ نِتاجِ فكرِهِ المُوسوعيِّ هذا، العَديدُ مِنَ المُصنَّفاتِ والمُؤلَّفاتِ الَّتي سارَتْ بِها الرُّكبانُ، وتَحدَّثَ بِها القاصي والدَّاني، وأَغنَتِ المَكتبةَ العربيَّةَ في الفكرِ والنَّحوِ والأَدبِ، ولَعلَّ كِتابَهُ (الكاملَ) مِنْ أَهمِّ ما تَزخرُ بِهِ مَكتبتُنا العربيَّةُ مُنذُ القَديمِ مِنْ نَفائِسَ في اللُّغةِ والنَّحوِ والأَدبِ، بَلْ جعلَهُ بَعضُ النُّقادِ القُدامَى والمُحدثينَ أهمَّ كتابٍ في النَّحوِ واللُّغةِ والأَدبِ بَعدَ كتابِ النَّحوِ لِسيبويه.

وفَوقَ هذا وذاكَ كانَ «أَبو العبَّاسِ المُبرِّدُ» شاعراً مُتمكِّناً ومُجيداً، ولَهُ في دولةِ القريضِ صولاتٌ وجولاتٌ، تَرَكَتْ بَصماتِها في تاريخِ آدابِ اللُّغةِ العربيَّةِ، غيرَ أَنَّهُ كانَ مُقِلّاً مِنْ نَظْمِ الشِّعرِ لِاشتغالِهِ بِالنَّحوِ والأَدبِ.

ولا يُمكِنُنا أَنْ نَنسَى أَنَّهُ كانَ ـ إِضافةً إِلى ذَلكَ ـ مُحدِّثاً بَليغاً وفَصيحاً، وراويَةً ثَبتاً وحجَّةً مَقبولاً؛ رَوَى عَنْ شُيوخِهِ الكثيرَ مِنَ النَّوادرِ والأَخبارِ والأَحداثِ، ومُتكلِّماً رزَقَهُ اللهُ الأُسلوبَ الجَزلَ وفَصلَ الخطابِ في الكلامِ، وحُسنَ الجوابِ في السُّؤالِ، وقُوَّةَ الدِّرايَةِ

والفَهمِ والإفهامِ، ومَعيناً لا يَنضبُ لِلعلماءِ الَّذِيْنَ أَتَوا بَعدهُ يفتونَ بآرائِهِ، ويَستأنسونَ بِشروحاتِهِ في قَواعدِ اللُّغةِ والنَّحوِ، ويغنونَ بِتصانيفِهِ مَعارفَهُمْ وثَقافَتهُمْ.

فَمَنْ هوَ أَبو العباس المُبرِّدُ، وأَينَ عاشَ، وما هيَ أَهمُّ معالِمِ حياتِهِ؟

هيَّا بِنا نَستَوضِحُ ذَلكَ في الصَّفحاتِ التَّاليَةِ.

❋ ❋ ❋

«أَبو العبَّاسِ مُحمَّدُ بنُ يَزيدٍ بنُ عبدِ الأَكبرِ الثُّماليُّ الأَزديُّ» يَنتهي نَسبُه إِلَى بَني ثُمالةَ[1]، وهُمْ فَرعٌ مِنَ القبائِلِ العربيَّةِ الأَزديَّةِ، و«ثُمالَةُ» هو «عوفُ بنُ أَسلم»، و«أَزدُ» هوَ: «الأَسدُ بنُ غَوثٍ».

ولدَ «أَبو العبَّاسِ المُبرِّدُ» في مَدينةِ البَصرةِ سنةَ (210) هجريَّةً ونَشأَ وترعرعَ فيها، ومُنذُ صغرِهِ كانَ يميلُ إِلى العلمِ والثَّقافةِ والأَدبِ، كما وجدَ في نَفسِهِ شَغفاً وولَهاً نَحوَ علومِ اللُّغةِ العربيَّةِ ولا سيَّما علمَ النَّحوِ الَّذِي كانَ الشُّغلَ الشَّاغلَ لِعُلمائِها في ذَلكَ العَصرِ، وكانَتْ مَدرسَةُ البَصرةِ النَّحويَّةِ قبلَةَ هذا العلمِ، ومِنَ الواضحِ أَنَّ ثَقافَةَ «أَبي العبَّاسِ المُبرِّدِ» نضَجَتْ وهوَ لَمْ يَزلْ حديثَ السِّنِّ بِسببِ حرصِهِ عَلى العلمِ ومُجالستِهِ لِكبارِ عُلماءِ البَصرةِ، فَكانَ أَصغرَ طالبِ علمٍ يَغشَى مجالسَ العُلماءِ في البَصرةِ كُلِّها في ذَلكَ الحينِ.

أَخذَ أَبو العبَّاسِ المُبرِّدُ العلمَ عَنْ كَوكبَةٍ مِنْ كبارِ عُلماءِ الدِّينِ واللُّغةِ في البَصرةِ

---

(1) قال المبرد في كتاب الاشتقاق: سميت ثمالة لأنهم شهدوا حرباً فني فيها معظمهم ولم يبق منهم إلا ثمالة. والثمالة: البقية اليسيرة.

فَاستمعَ في بِدايَةِ طلبِهِ لِلعلمِ إِلى «أَبي عُمر الجُرميِّ»[1] الَّذِي كانَ مِنْ أَعلمِ النَّاسِ بِالنَّحوِ وعلمِ القِراءاتِ، ثُمَّ لَزمَ حلقةَ رئيس مدرسَةِ البَصرةِ في علمِ النَّحوِ، وكبير نُحاةِ البَصرةِ والعالم العربي والإِسلامي في ذَلكَ العصرِ «أَبي عُثمانَ المازنيِّ»[2]، وتَفقَّهَ بِاللُّغةِ والنَّحوِ عَلى يَدهِ.

كما لزم «المُبرِّدُ» العالمَ «أَبا حاتمِ السَّجستانيَّ»[3] أَحدَ كبارِ عُلماءِ البَصرةِ وأخذَ عنهُ الشِّعرَ واستخراجَ المعاني، بَلْ يَذكرُ المُبرِّدُ أنَّ التزامَهُ بِحلقةِ «أَبي حاتمٍ السَّجستانيِّ» كانَ منذُ حداثةِ سنِّهِ، فَيقولُ:

«جئتُ السَّجستانيَّ وأَنا حديثُ السِّنِّ، فَرأَيتُ بَعضَ ما يَنبغي أَنْ تُهجرَ حلقَتُهُ لَهُ، فَتركتُهُ مُدَّةً ثُمَّ صرتُ إِليهِ».

ولَمْ يَقتصرِ «المُبرِّدُ» في سبيلِ طلبِهِ لِلعلمِ على لزومِ مجالسِ العُلماءِ فَقطْ، وإِنَّما كانَ يَحضرُ المَجالسَ العلميَّةَ الَّتي كانَ يَعقدُها الفُضلاءُ والنُّبلاءُ وكبارُ أَعيانِ البَصرةِ ورِجالُ الدَّولةِ، وهوَ لَمْ يَزلْ حدثَ السِّنِّ، ويُشاركُ فيها الكبارَ في مُطارحَةِ الآراءِ والمُناقشَةِ

(1) صالح بن إسحاق كان مولى لبني جرم اليمانيين، وقيل كان مولى لجبلة بن أنمار، وأخذ علمه عن الأخفش الأكبر وعن يونس بن حبيب وعن الأصمعي.

(2) بكر بن محمد من بني مازن بن شيبان من قبيلة بكر بن وائل، كان أعلم الناس بالنحو والرواية وأخذ العلم عن الأصمعي، وكان مقرباً من الخليفة العباسي الواثق بالله.

(3) هو سهل بن محمد كان عالماً راوية ضليعاً بعلم العروض والشعر واستخراج المعاني وأخذ عن الأخفش والأصمعي. توفي سنة 255هـ.

والحوارِ، ورُبَّما في كثيرٍ مِنَ الأَحيانِ كانَ يَنالُ مِنهُمُ الإِطراءَ والثَّناءَ والإِعجابَ عَلى ما يَطرحُهُ عليهِمْ مِنْ آراء أو أَجوبةٍ أو أَسئلة، بَلْ كانَ أَصغرَ طالبِ علمٍ في البَصرةِ كُلِّها يَحضرُ هكذا مَجالسَ أو نَدواتٍ.

يَقولُ «أَبو حيَّانَ التَّوحيديُّ» في كتابِهِ «البَصائرِ والذَّخائرِ»: «كنتُ أَغشَى مَجلسَ جعفر بن القاسمِ، وكانَ يَتقلَّدُ إِمارةَ البَصرةِ لِلواثقِ، وأَنا حَدثُ السِّنِّ، ليسَ في المَجلسِ أَصغر منِّي سِنّاً، وكانَ يُخالطني بِحداثَتي ويُخاطبُني. وقالَ لي يَوماً وقَدِ استَحسَنَ كلامي:

أَنتَ اليَومَ عالمٌ! ثُمَّ قالَ لي: لا تَظنُّ أَنْ قَولي لَكَ: أَنتَ اليومَ عالمٌ أَنَّكَ لَمْ تَكُنْ عندي قَبلُ كَذلِكَ. إِنَّ اللهَ تَعالىَ يَقولُ: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: 19] وقَدْ كانَ لَهُ الأَمرُ قبلَ ذَلِكَ».

❁ ❁ ❁

أَمَّا عَنْ سَببِ تَسميَتِهِ بِالمُبرِّدِ، فُهناكَ عِدَّةُ رِواياتٍ تُفسِّرُ ذَلكَ:

أ ـ إِنَّ الجاحظَ أَطلقَ عليهِ هذا الاسمَ، فَيذكُرُ «أَبو هلالٍ العَسكريُّ» في كتابِهِ الأَوائِلِ: أَنَّ «الجاحظَ» دخلَ يَوماً عَلى «أَبي عُثمانَ المازنيِّ» وعندَهُ «المُبرِّدُ» وكانَ غُلاماً، فَأَخفَى نَفسَهُ في جُبٍّ عَنِ الجاحظِ، وجلسا يَتحدَّثانِ فَعطسَ المُبرِّدُ مِنْ مَكمنِهِ. فقالَ الجاحظُ: مَنْ هذا المُبردُ مِنَّا؟ فَسُمِّيَ بِذَلِكَ.

ب ـ إِنَّ أُستاذَهُ «أَبا عثمانَ المازنيَّ» سَمَّاهُ بِذلِكَ لِحُسنِ تَثبُّتِهِ بِالحفظِ وسُرعةِ بَدهيَّتِهِ

بِالجوابِ، فَيذكُرُ «الصَّفديُّ» في كتابِهِ «الوافي بِالوفيَّاتِ»: إنَّ المازنيَّ لَمَّا وضعَ كِتابَهُ «الأَلفَ واللَّامَ» سَأَلَ المُبرِّدَ عَنْ دَقيقِهِ وعَويصِهِ، فَأَجابَ بِأَحسنِ جوابٍ. فَقالَ لَهُ:

قُمْ فَأَنتَ «المُبرِّدُ» ـ بِكسرِ الرَّاءِ ـ أَي: المُثبتُ لِلحَقِّ.

ج ـ ويَذكُرُ غيرُ واحدٍ مِنَ المُؤرِّخينَ أَنَّ «المُبَرِّدَ» أَلفَ كتاباً أَسماهُ «الرَّوضَةَ» جَمعَ فيهِ الأَشعارَ الباردةَ لِعدَدٍ مِنْ شُعراءِ العَصرِ العباسيِّ، ولِذا سُمِّيَ بِالمُبرِّدِ. يَقولُ صاحبُ كتابِ العقدِ الفَريدِ: فَما أَحسبُهُ لَحقَهُ هذا الاسمُ ـ أَعني المُبرِّدَ ـ إِلَّا لِبردِهِ، وقَدْ تَخيَّرَ لأَبي العتاهيَةِ أَبياتاً تَقتلُ مِنْ بَردِها، وشَنَّفَها وقَرَّظَها بِكلامِهِ.

ثُمَّ يَذكُرُ مثالاً لِهذِهِ الأَشعارِ الباردةِ ـ أَي الخاليةِ مِنَ الحماسِ والقُوَّةِ وحَرارةِ الشِّعرِ الجَزلِ ـ الَّتي أَوردَها المُبرِّدُ لأَبي العتاهيَةِ:

آهٍ مِنْ وَجدي وكربي آهٍ مِنْ لَوعةِ حُبِّي
ما أَشدَّ الحُبَّ يا سُبحانَكَ اللَّهُمَّ رَبِّي

د ـ وهُناكَ روايَةٌ يَذكرُها المُبرِّدُ نَفسُهُ يرويها «الحافظُ اليَغموريُّ» في كتابِهِ «نورِ القَبسِ»، وتَتلخَّصُ في أَنَّ المُبرِّدَ قَدِ اختبأَ مِنْ صاحبِ الشرطةِ الَّذي جاءَ يَطلبُهُ عندَ «أَبي حاتمٍ السَّجستانيِّ» لِمنادمةِ أَميرِ البَصرةِ، وبعدَ أَنْ بَحثَ رسولُ صاحبِ الشُّرطةِ عنهُ في دارِ السَّجستاني ولَمْ يَعثرْ عليهِ، وكانَ مُختبئاً في مَزملَةٍ[1]، فَأَخذَ أَبو حاتم يُنادي عليهِ: يا مُبرِّدُ، يا مُبرِّدُ.. فَسمعَ النَّاسُ بِهذا اللَّقبِ، فَلَهجوهُ.

(1) المزملة: هي وعاء الماء الكبير، كانوا يضعون فيه الماء ليحافظ على برودته.

هـ ـ وهُناكَ رَأيٌ لِأَحدِهِمْ أَنَّهُ سُمِّي بِهذا الاسمِ لأَنَّهُ كانَ خَلوقاً وَقوراً وحَسنَ الشَّكلِ، فَكانَ وَسيماً جَميلَ الصُّورَةِ، يَشرحُ فُؤادَ النَّاظرِ إِليهِ، ويَثلجُ صَدرَهُ، ولِذلِكَ سُمِّيَ بِالمُبرِّدِ.

بيدَ أَنَّ القولَ الرَّاجحَ مِنْ هَذِهِ الأَقوالِ جَميعاً، هو تَأليفُهُ لِكتابِ الرَّوضَةِ. فما أَنْ أَتَمَّ العشرينَ مِنْ عُمرِهِ حَتَّى استَوفَى تَحصيلَهُ العلميَّ عَلى أَكملِ وَجهٍ في عُلومٍ شَتَّى، وبَرعَ براعةً فائِقةً في علومِ اللغةِ والنَّحوِ وروايَةِ النَّوادرِ والأَخبارِ، ولَمعَ صيتُهُ في البَصرَةِ وما حولَها، ووَصلَ خبرُهُ إِلى بَغدادَ على أَنَّهُ عالماً ثَبتاً حُجَّةً في اللُّغةِ، ومَرجعاً في النَّحوِ، وخاصَّةً بَعدَ وَفاةِ أُستاذِهِ «المازنيِّ» وتَزعُّمِهِ لِمدرسَةِ البَصرةِ مِنْ بَعدِهِ.

وكانَتْ لَهُ حلقَتُهُ العلميَّةُ في مَسجدِ البَصرةِ يَغشَاها النَّاسُ وطلبَةُ العلمِ، فكانَ مِنْ تَلامذتِهِ كوكبةٌ نادرةٌ مِنَ العُلماءِ الَّذِيْنَ حملوا رايَةَ اللُّغةِ العربيَّةِ مِنْ بَعدِهِ، وحَفظوها مِنْ مَظاهرِ كُلِّ لَحنٍ مُريبٍ ودَخيلٍ عَلَى لُغةِ العربِ فَكانَ مِنهُم: ابنُ دُريدٍ، ودرستويه، والأَخفشُ الصَّغيرُ. كما كانَ مِنْ تَلامذتِهِ أَصحابُ رئيسِ مدرسَةِ الكوفةِ «أَبي العبَّاسِ ثَعلبَ» الَّذِيْنَ تَركوا مجلسَ «ثَعلب» وتَحوَّلوا إِلى مَجلسِ «المُبرِّدِ»، وأَشهرهمْ «سليمانُ الزَّجَّاجُ» و«أَبو عبدِ اللهِ الدَّينوريُّ».

وقَدْ أَثَّرَ «المُبرِّدُ» تَأثيراً عَظيماً في تَلامذَتِهِ، ولِذا كانوا أَوفياءَ لَهُ أَشادوا بِعلمِهِ وفضلِهِ في كُتبِهِمْ، وبِمكانَتِهِ المُمَيَّزَةِ بينَ عُلماءِ عَصرِهِ.

❋ ❋ ❋

اعترضَتْ مَسألةٌ لُغويَّةٌ عَلى الخليفةِ العبَّاسيِّ «المُتوكِّلِ»، واختلفَ فيها مَعَ وَزيرِهِ

«الفَتحِ بنِ خاقانَ» أَيُّهما جَوابُهُ أَصحُّ فيها؟ فَاستدعيا «المُبرِّدَ» إِلَى مَدينةِ «سُرَّ مَنْ رَأَى»[1] حيثُ يُقيمُ الخليفَةُ وحاشيَتُهُ لِيَسْتَفتيانِهِ في هَذِهِ المَسأَلةِ.

فَأَجابَ عَنها جَواباً مُرْضياً للاثنينِ مَعاً. فَأُعجبَ «المُتوكِّلُ» بِحُسنِ جوابِهِ وفصاحتِهِ ونَباهَتِهِ، وأَجزلَ عليهِ العَطاءَ وأَكرمَهُ أَيَّما إِكرامٍ، ومِنْ يومها صار «المُبرِّدُ» مُقرَّباً مِنَ الخليفةِ ووَزيرِهِ، ومِنْ ثُمَّ نافسَهُ عَلى هذِهِ المَكانةِ والشُّهرةِ كَبيرُ نَحويِّي الكوفَةِ «أَبو العبَّاسِ ثَعلب»[2]. وجَرَتْ بينَهُما عدَّةُ مُناظراتٍ لُغويَّةٍ، تَفوَّقَ فيها «المُبرِّدُ» وأَثبتَ عُلوَّ كَعبِهِ في اللُّغةِ والنَّحوِ عَلى خَصمِهِ، وقُوَّةَ حُجَّتِهِ، وسِعةَ علمِهِ مِمَّا حَدا بِتلاميذِ «ثَعلب» بِالتَّحوُّلِ عَنْ مَجلسِهِ والانتقالِ إِلى مَجلسِ «المُبرِّدِ» لِلتَّتلمُذِ عَلى يَديهِ.

ومِمَّا يُروَى أَنَّ «ثَعلبَ» كانَ يَعترفُ لِلمُبرِّدِ بِسيادتِهِ في العلمِ وتَفوُّقِهِ عليهِ، ولِذا كانَ كثيراً ما يَتجَنَّبُ مُجالسَتَهُ أَو حوارَهُ أَو مُناقشتَهُ في مَسأَلةٍ ما حذراً مِنَ الإِحراجِ أَمامَ النَّاس؛ إِذْ يُظهرُ «المُبرِّدُ» فَصاحَتَهُ وحُسنَ جوابِهِ وبيانِهِ وتَعليلِهِ عليهِ.

وفيهما يَقولُ «ابنُ خلكانَ» في كتابِهِ «وفياتِ الأَعيانِ»:

«وكانَ «المُبرِّدُ» المذكورُ و«أَبو العبَّاسِ» المُلقَّبُ بِثعلب، عالمينَ مُعاصرينَ، بِهِما خُتِمَ

---

(1) وهي مدينة سامراء حالياً في العراق وتبعد قليلاً عن بغداد، بناها المعتصم وأقام فيها هو وسبعة خلفاء عباسيين من بعده.

(2) هو أحمد بن يحيى الشيباني النحوي، وقيل: كان مولى لمعن بن زائدة الشيباني، كان عالماً ثبتاً حجةً في علوم اللغة والشعر مقدماً عند العلماء منذ حداثة سنه، وإليه انتهت إمامة مدرسة الكوفة في علم النحو. توفي سنة 291هـ.

تاريخُ الأُدباءِ. وكانَ «المُبرِّدُ» يُحبُّ الاجتماعَ في المُناظرةِ بِثعلب والاستكثارَ، وكانَ «ثعلب» يَكرهُ ذَلكَ ويَمتنعُ عَنهُ».

ثُمَّ يَذكرُ «ابنُ خَلكانَ» سَببَ امتناعِ «ثعلب» وكراهيَتَهُ لِمُناظرةِ «المُبرِّدِ» عَلى لِسانِ «أَبي عبدِ اللهِ الدَّينوريِّ» الَّذِي كانَ أَحدَ تلاميذِ «ثَعلب»: «لأَنَّ «المُبرِّدَ» كانَ حَسنَ العبارةِ حُلوَ الإِشارةِ فَصيحَ اللِّسانِ واضحَ البيانِ، و«ثعلب» مَذهبُهُ مَذهبُ المُعلِّمينَ، فَإِذا اجتمَعا في محفلٍ حُكمَ لِلمُبرِّدِ عَلى الظَّاهرِ إِلى أَنْ يُعرفَ الباطنُ».

ولِهذا كانَ «ثعلب» يَحملُ في قَلبهِ شيئاً مِنَ الحقدِ والضَّغينةِ عَلى «المُبرِّدِ» ويَذكرُهُ بِبعضِ أَلفاظِ القُبحِ والسُّوءِ. فَسمعَ «المُبرِّدُ» بِذَلكَ، فَأَنشدَ:

رُبَّ مَنْ يُعنيهِ حالي وهوَ لا يَجري في بالي
قَلبُهُ مَلآنُ مِنِّي وفُؤادي مِنهُ خالي

فَلمَّا بَلغَ ثَعلب ذَلكَ، لَمْ يَسمَعْ مِنهُ بَعدَ ذِلكَ في حَقِّهِ كلمةً قَبيحةً.

❋ ❋ ❋

لقَدْ كانَ «المُبرِّدُ» موسوعةً علميَّةً وصاحِبَ خبرةٍ وثَقافةٍ في مُختلفِ العلومِ إِلى جانبِ تَخصُّصِهِ بِعلمِ النَّحوِ، وكانَ غَزيرَ الإِنتاجِ، كثيرَ العَطاءِ. وتُعتَبرُ مُؤلَّفاتُهُ مَراجعَ هامَّةً لِعُلماءِ الدِّينِ واللُّغةِ والتَّاريخِ والفَلسفَةِ والاجتماعِ، وهيَ تَربو عَلى الأَربعينَ كتاباً كما ذَكرَها ابنُ النَّديمِ في كتابِهِ «الفهرستِ» منها ما وَصلَ إِلينا ومِنها ما طوَتْهُ يَدُ الزَّمانِ مَعَ تَعاقبِ الأَيَّامِ

والسِّنينِ، فَضاعَ في دروجِ النِّسيانِ ولَمْ يَصلْ إلينا، ومعَ ذَلكَ لَمْ تَنسَ ذِكرَهُ مُصنَّفاتُ المُؤرِّخينَ والمُترجمينَ.

ومِنْ أَشهرِ مُؤلَّفاتِهِ:

1 ـ كتابُ الكاملِ في اللُّغةِ والأَدبِ: وهوَ أَهمُّ مُؤلَّفاتِهِ عَلى الإِطلاقِ، وهوَ أَشبهُ بِموسوعةٍ أَدبيَّةٍ وتاريخيَّةٍ ولُغويَّةٍ لِما حواهُ مِنْ مَعلوماتٍ قيِّمةٍ، وقَدِ اعتبرَهُ المُؤرِّخُ «ابنُ خلدونَ» أَحدَ الكُتبِ الأَربعةِ الَّتي يَقومُ عليها فَنُّ الأَدبِ واللُّغةِ العربيَّةِ معَ كتابِ «أَدبِ الكاتبِ» لِابنِ قُتيبةَ، وكتابِ «البيانِ والتَّبيينِ» لِلجاحظِ، وكتابِ «النَّوادرِ» أَو «الأَمالي» لِأَبي عليٍّ القالي. فَهذِهِ الكُتبُ الأَربعةُ لا غِنَى عَنها لِكُلِّ طالبٍ في الأَدبِ واللُّغةِ.

2 ـ ولَهُ مِنَ الكُتبِ المُشتهرةِ أَيضاً: كتابُ الرَّدِّ على سيبويه في تَصحيحِ بَعضِ مسائلِ اللُّغةِ والنَّحوِ، وكتابُ «المُقتضبِ» في مسائِلِ علمِ النَّحوِ والصَّرفِ، وكتابُ «الرَّوضةِ»؛ جمعَ فيهِ لِعدَّةِ شُعراءَ ما قالوهُ مِنْ شعرٍ باردٍ، وكتابُ «الاشتقاقِ»، و«معاني القُرآنِ»، وكتابُ «التَّصريفِ»، وكتابُ «التَّعازي والمَراثي»، وغيرُها.

تُوفِّي «المُبرِّدُ» سنةَ (285) هجريَّةً في خِلافةِ المُعتضدِ بِاللهِ، وقَدْ رَثاهُ «أَبو العبَّاسِ ثَعلب» في قَصيدةٍ قالَ فيها:

ذَهَبَ المُبَرِّدُ وانقضَتْ أَيَّامُهُ ... ولَيَذهبَّنَ معَ المُبَرِّدِ ثَعلبُ

الأَسْئِلَةُ وَالْمُنَاقَشَةُ

1 ـ بِماذا تَمكَّنَ «المُبَرِّدُ»، وماذا أَسَّسَ؟

2 ـ إِلى مَنْ يَنتهي نسبُ «المُبَرِّدِ» وما اسمُهُ الحَقيقيُّ؟

3 ـ لِماذا نَضجَتْ ثَقافةُ المُبَرِّدِ منذُ حداثَةِ سِنِّهِ؟

4 ـ مَنْ هُمُ العُلماءُ الَّذِيْنَ أَخذَ المُبَرِّدُ عَنهُمُ العلمَ؟

5 ـ هَلِ اقتصرَ المُبَرِّدُ في طلبِهِ لِلعلمِ على لزومِ مجالسِ العُلماءِ فَقط؟ بيِّنْ ذَلكَ.

6 ـ ما هو السَّببُ الأَرجحُ في تسميةِ المُبَرِّدِ بِهذا الاسمِ؟

7 ـ لِماذا كان ثعلب يكرهُ مُناظرةَ المُبَرِّدِ؟

8 ـ ماذا اعتُبرَ كتابُ الكاملِ لِلمُبَرِّدِ؟

أَبو العبَّاس ثَعلب
صاحبُ العلمِ المستطيل
(200 ـ 291هـ)

أَبو العبَّاسِ ثَعلبٌ، صاحبُ العلمِ المُستطيلِ، وكبيرُ تَلاميذِ الكِسائيِّ إمامِ نُحاةِ البَصرةِ، ومَنِ انْتَهَتْ إليهِ رِيادةُ مدرسَةِ الكوفَةِ في النَّحوِ بَعدَ الكِسائيِّ والفَرَّاءِ، ومَنْ بَشَّرَهُ النَّبيُّ ﷺ في الرُّؤيا بِعلمٍ واسعٍ ومُستطيلٍ[1]، أَلا وهوَ علمُ النَّحوِ والعربيَّةِ الَّذِي هوَ عِلمٌ خالدٌ ودائِمٌ ما دامَتِ السَّمواتُ والأَرضُ حَتَّى يَرِثَ اللهُ الأَرضَ وما عَليها، لأَنَّها لُغةُ الذِّكرِ الحَكيمِ الَّذِي قالَ اللهُ ﷻ عَنهُ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

أَقولُ: «أَبو العبَّاسِ ثَعلبٌ: عالِمُ النَّحوِ الكوفيُّ، كانَ ثانيَ اثنينِ في عَصرِهِ، هوَ وأَبو العبَّاسِ المُبَرِّدُ، أَسهَما في ارتِقاءِ علمِ النَّحوِ، وفي تَقريبِ وجهاتِ النَّظرِ بينَ نَحوِ الكوفيينَ والبَصريينَ، وأَسَّسا فيما يُعرفُ بِالمدرسَةِ البَغداديَّةِ في علمِ النَّحوِ مَعَ تَلامِيذِهِما، ومَثَّلا

(1) ورد عن النبي ﷺ في هذا الشأن قوله: «من رآني في المنام فقد رآني في اليقظة».

طوراً جَديداً وفَريداً في علمِ النَّحوِ، هوَ مِنْ أَغنَى وأعظمِ الأَطوارِ الَّتِي مَرَّ بِها عِلمُ النَّحوِ في مَسيرَتِهِ الطَّويلةِ عَلى الإطلاقِ».

كانَ أَبو العبَّاسِ ثَعلب، مِنْ أَعظمِ عُلماءِ العربيَّةِ والنَّحوِ الحافظينَ والمُتمكِّنينَ مِنْ عُلومِ اللُّغةِ، فَكانَ يَحفظُ عَدداً كبيراً مِنْ كُتبِ اللُّغةِ والنَّحوِ الَّتِي أَلَّفَها العُلماءُ قَبلَهُ عَنْ ظَهرِ قَلبٍ، وكانَ مَحجَّةً لِلنَّاسِ في عِلمِ النَّحوِ، إِليهِ تُشدُّ الرِّحالُ فيهِ، وتسيرُ الرُّكبانُ، وتُضرَبُ أَكبادُ الإبلِ، وكانَ أَحدَ الظَّواهرِ والمَعالمِ النَّادرةِ الَّتِي تَميَّزَتْ بِها مَدينةُ الكوفَةِ في عَصرِهِ، فكانَ بابُ دارِهِ لا يَخلو في اللَّيلِ أَو النَّهارِ مِنْ تَزاحُمِ مَطايا وإِبلِ مَنْ شَدُّوا إِليهِ الرِّحلَة مِنْ كُلِّ بَلدٍ لِيَستَفيدوا مِنْ عِلمِهِ ونَحوِهِ.

كما كانَ مِنْ أَوثَقِ العُلماءِ في عَصرِهِ رِوايَةً ومَعرفَةً لِلشعرِ العربيِّ، وإِتقاناً لِعلمِ النَّحوِ، فَكانَ العُلماءُ الضَّليعونَ بِهذِهِ العُلومِ، إِذا شَكُّوا في أَمرٍ مِنْ ذَلِكَ أَرسَلوا إِليهِ يَسأَلونَهُ ويَستَفتونَهُ، فَكانَ يُجيبُهُمْ بِكُلِّ ثقةٍ، وبَيانِ حُجَّةٍ بِما يَعرفُ ويَحفظُ، فَقَدْ بَلغَ في هذا العِلمِ شَأواً بعيداً وعَظيماً، حَتَّى قالَ نِدُّهُ ومُنافسُهُ أَبو العبَّاسِ المُبَرِّدُ في حَقِّهِ: «أَعلَمُ الكوفيينَ ثَعلب».

وقالَ عنهُ أَحدُ العُلماءِ الرُّواةِ مِنْ مُعاصريهِ: «لا يَردُ عَرَصاتِ يَوم القيامةِ أَحدٌ أَعلمُ بِالنَّحوِ مِنْ ثَعلب».

فَمَنْ هوَ أَبو العبَّاسِ ثَعلب، وما هيَ أَهمُّ مَعالمِ حَياتِهِ؟ هذا ما سَنعرفُهُ ونَقرؤُهُ في الصَّفحاتِ التَّاليةِ.

❋ ❋ ❋

هوَ أَبو العبَّاسِ أَحمدُ بنُ يَحيَى بنِ يَزيدَ بنِ سيَّارٍ الشَّيبانيُّ بِالولاءِ المُلقَّبُ بِثعلب، كانَ مولى لِمَعنِ بنِ زائِدةَ الشَّيبانيِّ، وواضحٌ أَنَّ «سَيَّاراً» جَدَّ أَبي العبَّاسِ ثَعلب كانَ مِنْ أَصلٍ غيرِ عَربيٍّ قَدمَ الكوفَةَ ووالَى بَني شَيبانَ[1].

ولِدَ أَبو العبَّاسِ ثَعلبُ في الكوفةِ سنةَ (200) هجريَّةً في السَّنةِ الثَّانيةِ مِنْ خِلافَةِ المَأمونِ، وبعدَ انقضاءِ ثَلاثِ سَنواتٍ مِنْ ولادَتِهِ، انتقَلَ مَعَ ذَويهِ للعيشِ في بَغدادَ، فَنشأَ وتَرعرَعَ فيها، وتأَثَّرَ بِالجَوِّ العلميِّ المُحيطِ بِهِ؛ إِذْ قَطَنَتْ أُسرَتُهُ في حيٍّ وسطَ بَغدادَ في سَكنِ الأَشرافِ والعُلماءِ والمُثقَّفينَ في ذاكَ العَصرِ، ووَعَى لِلحياةِ العلميَّةِ والسِّياسيَّةِ مُنذُ كانَ صَغيراً، حَتَّى إِذا ما شَبَّ عَنِ الطَّوقِ، بَدأَ بِقراءَةِ الكُتبِ ومُدارَسَتِها، وبِشكلٍ كبيرٍ كُتُبِ نحويِّ عَصرِهِ أبي زَكرياء الفَرَّاءِ، فَاسْتَهوى دراسَةَ عُلومِ اللُّغةِ، ووَجدَ في نَفسِهِ ميلاً نَحوَ علمِ النَّحوِ، ومِنْ ثمَّ جلسَ يَستَمعُ إِلى عُلماءِ عَصرِهِ، وطافَ عَلى كَوكبَةٍ مِنهُمْ، يَنهَلُ مِنْ مَعارِفِهِمْ ومِنْ عُلومِهِمْ بِجَدٍّ وشَغَفٍ شَديدينِ.

يَروي المُؤرِّخُ ياقوتُ الحَمويُّ في «مُعجمِ الأُدباءِ» فَيقولُ: «قَرأتُ بِخَطِّ أَبي سالمٍ الحسَنِ بنِ عليٍّ قالَ: قرأْتُ بِخَطِّ عَليِّ بنِ مُقلَةَ: قالَ أَبو العبَّاسِ أَحمدُ بنُ يَحيَى (ثعلب): «ابتَدَأْتُ النَّظرَ في العربيَّةِ والشِّعرِ واللُّغةِ في سَنةِ (216) هجريَّةً، ومولدي سَنةَ (200) هجريَّة في السَّنةِ الثَّانيَةِ مِنْ خِلافَةِ المَأمونِ، ورَأَيتُ المَأمونَ لَمَّا قَدِمَ مِنْ خُرَّاسانَ سنةَ

(1) بنو شيبان: هم حي من قبيلة بكر بن وائل وينسبون إلى شيبان بن ثعلبة بن عكابة.

(204) هجريَّةً وقَدْ خرجَ مِنْ بابِ الحَديدِ[1] ـ وهوَ يُريدُ قَصرَ الرصافَةِ ـ والنَّاسُ صَفَّانِ في المُصَلَّى، وكانَ أَبي قَدْ حَملَني عَلى يَدِهِ، فَلمَّا مَرَّ المَأمونُ رَفَعَني، وقالَ: هذا المَأمونُ وهَذِهِ سَنةُ أَربَعٍ. فَحفظْتُ ذَلِكَ إِلى هذِهِ الغايَةِ، وحذقتُ العربيَّةَ، وحفظتُ كُتبَ الفَرَّاءِ كُلَّها لَمْ يَشُذَّ عَنِّي حرفٌ مِنها ولي (25) سنةً، وكُنتُ أعتني بِالنَّحوِ أَكثرَ مِنْ عِنايَتي بِغَيرِهِ».

وفي موضعٍ آخرَ يَقولُ «أبو العبَّاسِ ثَعلب» عَنْ نَفسِهِ: «ماتَ مَعروفٌ الكَرخيُّ[2] سَنةَ مئتينِ، وفيها ولدتُ، وطابَتْ لي العربيَّةُ سنةَ سِتَّ عشرَةَ ومئتينِ، وابتَدأْتُ بِالنَّظرِ في حُدودِ الفَرَّاءِ ولي ثَمانِ عشرَةَ، وبَلغتُ خَمساً وعشرينَ سَنةً وما بَقيَ عليَّ لِلفَرَّاءِ مَسأَلةٌ إِلَّا وأَنا أَضبطُ موضعَها مِنَ الكتابِ، ولَمْ يَبقَ مِنْ كُتُبِ الفَرَّاءِ في هذا الوَقتِ شيءٌ إِلَّا وأَنا قَدْ حَفظتُهُ».

لَزِمَ «ثَعلب» في بِدايَةِ تَحصيلِهِ العلميِّ الحافظَ القَواريري[3] مُحدِّثَ بَغدادَ، وسَمعَ مِنهُ ما يُقاربُ المئَةَ أَلفِ حَديثٍ، وسمعَ العربيَّةَ والشِّعرَ مِنْ سَلمةَ بنِ عاصمٍ[4]، وسَمعَ مِنَ

---

(1) باب الحديد: يقال: إنه أعمر موضع في بغداد وأنزهه لما فيه من البساتين والشجر والنخل، ولتوسطه بغداد.

(2) هو أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي، كان مولى للإمام موسى الرضا، وهو من العلماء الأتقياء والصالحين الأولياء، وله في التصوف أحوال مشهورة، وكان نصرانياً فأسلم، وكان سبباً في إسلام أبويه. توفي سنة 200هـ وقبره في بغداد يزار حتى يومنا هذا.

(3) هو عبيد الله بن عمر القواريري البصري، كان عالماً راوية سمع من الكبار، وروى عنه كبار الرواة أمثال البخاري ومسلم وأبو داود. توفي سنة 235هـ.

(4) هو أبو محمد سلمة بن عاصم النحوي، أخذ عن الفراء وله عدة مؤلفات. قال ثعلب: كان سلمة حافظاً لتأدية ما في الكتب الطوال حاذقاً بالعربية.

الشاعرِ والمُحدِّثِ واللُّغويِّ ابنِ المُغيرةِ الأَثرمِ[1]، ومِنَ الرَّاويَةِ والمُحدِّثِ مُحمَّدِ بنِ سلامٍ الجُمَحيِّ[2]، ومِنْ القاضي المُحدِّثِ الزُّبيرِ بنِ بَكَّارٍ، ولَكنَّهُ لازمَ عالمَ عَصرِهِ في اللُّغةِ العربيَّةِ ابنَ الأَعرابيِّ[3] وأَخذَ عَنهُ أَكثرَ عِلمِهِ حَتَّى اشْتُهرَ بِأَنَّهُ تلميذُ ابنِ الأَعرابيِّ، وكانَ ابنُ الأَعرابيِّ هذا يُجلُّ ثعلب كثيراً ويُقدِّرُ لَهُ علمَهُ واجتهادَهُ إِلى دَرجَةِ أَنَّهُ كانَ يَرجعُ إِليهِ في حَلِّ المُعضلاتِ الصَّعبةِ رغمَ أَنَّهُ أُستاذُهُ، كما كانَ ثعلب يُقدِّرُ في أُستاذِهِ علمَهُ ومَكانَتَهُ.

يَقولُ ثَعلب: «شاهدتُ مجلسَ ابنِ الأَعرابيِّ، وكانَ يَحضرُهُ زَهاءَ مئَةِ إِنسانٍ، وكانَ يُسأَلُ ويُجيبُ عليهِ مِنْ غيرِ كتابٍ، ولَزمتُهُ بِضعَ عشرةَ سنةً ما رأيتُ بِيَدِهِ كتاباً قَطُّ، وقَدْ أَملَى عَلى النَّاسِ ما يُحمَلُ عَلى جِمالٍ ولَمْ يُرَ أَحدٌ في علمِ الشِّعرِ أَغزرَ مِنْهُ».

ولِهذا قالَ أَبو الطَّيبِ اللُّغويُّ: كانَ ثَعلب يَعتمدُ عَلى «ابنِ الأَعرابيِّ» في اللُّغةِ، وعَلَى «سَلمةَ بنِ عاصمٍ» في النَّحوِ. ومِنْ ثمَّ ما كادَ يُتمُّ تَحصيلَهُ العلميَّ حَتَّى صارَ مُقدَّماً بالنَّحوِ عندَ عُلماءِ عَصرِهِ.

❁ ❁ ❁

(1) هو أبو الحسن علي بن المغيرة الأثرم نشأ في البصرة ومات في بغداد سنة 232هـ، وألف عدة كتب منها كتاب النوادر وغريب الحديث، وأخذ العلم عن الأصمعي.

(2) هو أبو عبد الله محمد بن سلام بن عبيد الله بن سالم مولى عثمان بن مظعون الجمحي، كان شاعراً عالماً بالعربية راوية. توفي سنة 232هـ.

(3) هو أبو عبد الله بن زياد المعروف بابن الأعرابي الكوفي صاحب اللغة، وهو من موالي بني العباس بن عبد المطلب، كان رأساً في كلام العرب.

كانَ أَبو العبَّاسِ ثَعلب ـ كما وَصفَهُ المُؤرِّخونَ والَّذِيْنَ عاصروهُ ـ ثِقةً، حجَّةً، صالِحاً، مَشهوراً بِالحفظِ، وصدقِ اللَّهجةِ، والمعرفَةِ بِالعربيَّةِ، ورِوايَةِ الشِّعرِ القَديمِ، مُقدَّماً عندَ الشُّيوخِ مُنذُ كانَ حَدثاً، مُتفَنِّناً، يَستَغني بِشهرَتِهِ عَنْ نَعتِهِ، وكانَ ضيِّقَ النَّفقةِ، وقَدْ بَشَّرهُ رَسولُ اللهِ ﷺ بِالعلمِ المُستطيلِ (وهو التَّمكنُ مِنْ علمِ النَّحوِ) في الدُّنيا في رُؤيا أَحدِ العُلماءِ الصَّالحينَ مِنْ أَعيانِ عَصرِهِ.

فَيذكرُ ابنُ خلكانَ في وَفيَّاتِهِ وغيرُهُ مِنَ المُؤرِّخينَ: إِنَّ أَبا بَكرٍ بنَ مُجاهدٍ المُقرئَ[1] قالَ: كُنتُ عندَ أبي العبَّاسِ ثَعلب فقالَ لي: يا بَكر، اشتَغلَ أَهلُ القُرآنِ بِالقُرآنِ فَفازوا، واشْتَغلَ أَهلُ الحديثِ بِالحديثِ فَفازوا، واشْتَغلَ أَهلُ الفقهِ بِالفقهِ فَفازوا، واشتَغلتُ أَنا بِزيدٍ وعَمرٍو فَليتَ شِعري! ماذا يَكونُ حالي في الآخرةِ؟ فانْصرَفتُ مِنْ عندِهِ تلكَ اللَّيلَةَ فَرأيتُ النَّبيَّ ﷺ في المَنامِ، فقالَ: «أقْرِئْ أَبا العبَّاسِ مِنِّي السَّلامَ، وقُلْ لَهُ: أَنتَ صاحبُ العلمِ المُستطيلِ»[2].

كما كانَ أَبو العبَّاسِ ثَعلب لا يَتردَّدُ ولا يَجدُ حَرَجاً إِذا ما سُئِلَ عَنْ مَسأَلَةٍ لا يَعرفُها

---

(1) هو أحمد بن موسى بن مجاهد المقرئ، كان شيخ القراء في عصره. مات سنة 245هـ، وقال عنه أبو العباس ثعلب: ما بقي من عصرنا هذا أعلم بكتاب الله من أبي بكر بن مجاهد، وتروى عن ابن مجاهد أحوال روحية عجيبة.

(2) قال العبد الصالح أحمد بن عطاء المروزباري المتوفى سنة 369هـ، أي: أراد النبي ﷺ من إطلاقه تسمية العلم المستطيل على علم النحو أن الكلام به يكمل والخطاب به يجمل وأن جميع العلوم مفتقرة إليه، ولهذا قال أبو الوليد ابن رشد الحفيد: ينبغي تعلمه قبل كل العلوم.

أنْ يَقولَ: لا أَدري. وكانَ يَرى هَذِهِ الإِجابَةَ تَدلُّ عَلى وَرَعِ العالِمِ وعَلى تَفَقُّهِهِ بِالعلمِ، ولا تَدلُّ عَلى مَنقَصةٍ فيهِ أَبداً. ولِهذا لَمَّا أَرسَلَ إِليهِ القاسمُ بنُ عُبيدِ اللهِ وزيرُ المُعتَضِدِ جداولَ كتابِ «جامع النُّطقِ» لِمَحبرَةِ النَّديمِ[1] مِنْ أَجلِ أنْ يَشرَحَها ويُفسِّرَها بناءً عَلى رغبَةِ الخليفَةِ المُعتضدِ، اعتذَرَ عَنْ ذَلِكَ وقالَ للوزيرِ: لَستُ أَعرفُ هذا.

سُئِلَ ذاتَ يومٍ عَنْ شَيءٍ، فقالَ: لا أَدري. فقيلَ لَهُ: أَتقولُ: لا أَدري؟! وإِليكَ تُضربُ أَكبادُ الإِبلِ، وإِليكَ الرِّحلَةُ مِنْ كُلِّ بَلدٍ؟! فقالَ لِلَّذي سَأَلَهُ: لو كانَ لأُمِّكَ بِعدَدِ «لا أَدري» بَعرٌ لاسْتَغْنَتْ[2].

كما كانَ سَمحَ النَّفسِ، طَيِّبَ القَلبِ، حَسنَ العريكَةِ، مِنَ الطِّرازِ النَّادرِ مِنَ العُلماءِ، لَمْ يُسخِّرْ عِلمَهُ في تَحقيقِ مَآرِبَ شَخصيَّةٍ، أو في سبيلِ دُنيا يُصيبُها، ويَدلُّ عَلى ذَلكَ ما دارَ بينَهُ وبينَ نِدِّهِ أَبي العبَّاسِ المُبَرِّدِ مِنْ مُنافسَةٍ وجِدالٍ وخِصامٍ أَدبيٍّ حَولَ بَعضِ المَسائِلِ النَّحويَةِ، فَعندَما قَدمَ المُبَرِّدُ مِنَ البَصرةِ إِلى بَغدادَ، وصارَ لَهُ نُفوذُهُ العِلميُّ، وحَلقَتُهُ الَّتِي يَجتمعُ إِليهِ فيها العُلماءُ والطُّلابُ، ومالَ إِليهِ أَكثريَّةُ تَلاميذِ أبي العبَّاسِ ثَعلب، بَقيَ ثَعلب مُحافِظاً عَلى ودِّهِ واحترامِهِ لِلمُبَرِّدِ، ولَمْ يَجدْ في نَفسِهِ غضاضةً في الاعترافِ لِلمُبَرِّدِ بِالسَّبقِ

(1) هو محمد بن يحيى بن أبي عباد، كان يقال له «محبرة النديم» ويكنى بأبي جعفر، وكان وافر العلم حسن الأدب ينادم المعتضد.

(2) أراد بهذا القول أن كلمة «لا أدري» يستغنى بها عن الجهل أو الخوض في الكلام الخاطئ الذي لا يخلو من إرداء العالم في المهالك وازدرائه في أعين الناس.

والتَّفوُّقِ، وكانَ إذا صادَفَهُ أَو اجْتَمَعَ بِهِ بادرَهُ بِالاحترامِ إجلالاً لِعلمِهِ، علماً أَنَّ المُبَرِّدَ قالَ في حَقِّهِ شِعراً قاسياً وجارِحاً.

كما كانَ المُبَرِّدُ يُقدِّرُ لِثعلب منزلَتَهُ العِلميَّةَ، وجُهودَهُ العَظيمةَ في مِضمارِ عِلمِ النَّحوِ، وكانَ يَراهُ أَهمَّ مِنْ أُستاذِهِ الفَرَّاءِ، فَقالَ يَوماً: أَعلمُ الكوفيينَ ثَعلب، فَذُكِرَ لَهُ الفَرَّاءُ، فقالَ: لا بِعشره. (ويَقصدُ: أنَّ الفَرَّاءَ لا يُوازي علمُهُ عِشْرَ علمِ ثَعلب).

وفي الحَقيقَةِ، إنَّ المُبَرِّدَ وأَبا العبَّاسِ ثَعلب كانا مُتساويينِ في الدَّرجَةِ العلميَّةِ، ولا يُمكِنُنا عَدُّ أَحدِهِما أَحسَنَ مِنَ الآخَرِ، فَبِهِما خُتِمَ تاريخُ الأَدبِ كَما قالَ المُؤرِّخونَ والنُّقادُ مُعاصروهُمْ.

ويَذكُرُ أَبو عبدِ اللهِ الدَّينوريُّ وكانَ خَتنَ ثَعلب ـ زَوجَ ابنَتِهِ ـ عَنْ سَبَبِ مُفارَقَتِهِ لِمجلسِ ثَعلب وإِقبالِهِ عَلى مَجلسِ المُبَرِّدِ لَمَّا سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَأَجابَ:

إِنَّ المُبَرِّدَ كانَ أَعلمَ مِنْ ثَعلَب بِكتابِ سيبويه (وكانَ المُبَرِّدُ كَسيبويه بَصرياً، وثعلب كوفياً). فَسأَلَهُ إسحاقُ المصعَبيُّ: كيفَ صارَ محمَّدُ بنُ يَزيد المُبَرِّدُ أَعلمَ مِنْ ثَعلب بِكتابِ سيبويه؟

قالَ: لأَنَّ محمَّداً بنَ يَزيدَ المُبَرِّدَ قَرأَهُ عَلى العُلماءِ، وأَحمدَ بنَ يَحيَى ثَعلباً قَرأَهُ عَلى نَفسِهِ.

❋ ❋ ❋

رغمَ المُنافسَةِ الحادَّةِ الَّتِي كانَتْ بينَ أَبي العبَّاسِ ثعلب، والمُبَرِّدِ عَلى زَعامَةِ علمِ

النَّحوِ؛ بَقيَ أَبو العبَّاسِ ثَعلب مُقدَّماً عِندَ الشُّيوخِ والعُلماءِ؛ لأَنَّهُمْ كانوا يَرونَهُ أَرسَخَ معرفَةً بِنَحوِ الكوفيينَ والبَصريينَ مِنَ المُبَرِّدِ، وأَقدرَ حِفظاً لِكُتُبِ المُتقدمينَ مِنهُ، فَكانَ ثَعلب يُدرِّسُ كتابَ سيبويه وكُتُبَ المُبَرِّدِ والفَرَّاءِ اعتماداً عَلى حِفظِهِ وذاكرَتِهِ مِنْ غيرِ أَنْ يَضعَ كتاباً بينَ يَديهِ.

يَذكرُ ياقوتُ الحَمويُّ في «مُعجمِ الأُدباءِ» عَنِ المرزباني عَنْ أحمدَ بنِ مُحمَّدٍ العَروضيِّ، قالَ: «إِنَّما فُضِّلَ أَبو العبَّاسِ ثَعلب على أَهلِ عَصرِهِ بِالحفظِ لِلعُلومِ الَّتي تَضيقُ عَنها الصُّدورُ، وكانَ لا يَمَسُّ بِيَدِهِ كِتاباً اتِّكالاً عَلى حِفظِهِ، أَو ثِقَةً بِصفاءِ ذِهنِهِ».

وكانَ لأَبي العبَّاسِ حُسَّادُهُ مِنَ العُلماءِ الَّذِيْنَ ضاقوا ذَرعاً مِنْ تَقدُّمِهِ عليهِمْ، ومِنَ المنزلةِ الَّتي تَبوأها بينَ أَعيانِ عَصرِهِ، فَقَدْ أَدَّبَ وعَلَّمَ ابنَ عبدِ اللهِ بنَ طاهرٍ والي خَرَّاسانَ محمَّدَ بن عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ، وذاتَ يَومٍ صادفَ في مَجلسِ الأَميرِ محمَّدَ بنَ عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ أَحدَ عُلماءِ بَغدادَ الَّذِيْنَ حَسدوهُ عَلى مكانَتِهِ عندَ الأَميرِ، قالَ ثَعلب:

قالَ لي مُحمَّدُ بنُ عيسَى[1] في حَضرةِ محمَّدٍ بنِ عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ: نَحنُ نُقدِّمُكَ لِتَقدمَةِ الأَميرِ، فَقلتُ لَهُ: يا شَيخُ، إِنِّي لَمْ أَتعلَّمِ العِلمَ لِتُقدِّمَني الأُمراءُ وإِنَّما تَعلَّمتُهُ لِتُقدِّمَني العُلماءُ.

❋ ❋ ❋

(1) هو أبو بكر محمد بن عيسى المعروف بابن الطباع توفي سنة 277هـ، وقصته مع محمد بن عبد الله بن طاهر مشهورة.

عاشَ ثعلب تسعينَ سنةً، وعاصرَ أَحدَ عشرَ خليفَةً، أَوَّلهُمُ المَأمون وآخِرهُمُ المُكتَفي. وكانَ قَدْ ثَقُلَ سَمعُهُ قبلَ موتِهِ، وتُوفيَ سنةَ (291) هجريَّةً ودفنَ بِمقابرِ بابِ الشَّامِ بِبغدادَ في حجرةٍ اشْتُرِيَتْ لَهُ وبُنِيَتْ بعدَ ذَلِكَ وقبرُهُ هُناكَ مَعروفٌ.

وذكرَ القطربليُّ في تاريخِهِ: حدَّثَ المروزيُّ عَنْ أَبي العباسِ محمَّد بنِ طاهرٍ بنِ عبد الله بنِ طاهرٍ، وكانَ أَبو العبَّاسِ ثَعلبُ مؤدبَ أَبيهِ، أَنَّهُ كانَ يَومَ جُمُعة قَدِ انصرَفَ (ثعلب) مِنَ الجامعِ بَعدَ صلاةِ العصرِ، وكانَ يَتبَعُهُ جَماعةٌ مِنْ أَصحابِهِ إِلى منزلِهِ أَنا أَحدُهُمْ. واتَّفقَ أَنَّ ابناً لإبراهيم بنِ أَحمدَ المادرائيِّ يسيرُ وراءَنا عَلى دابَّةٍ وخَلفَهُ خادمٌ لَهُ عَلى دابَّةٍ قَدْ قَلقَ واضطربَ، وكانَ (ثعلب) يُمسكُ بيدِهِ دفتراً ينظرُ فيهِ، وقَدْ شَغلَهُ عَمَّا سِواهُ، فَلما سَمعنا حوافرَ الدَّوابِّ خَلفَنا تَأَخَّرنا عَنْ جادَّةِ الطَّريقِ، ولَمْ يَسمعْ أَبو العبَّاسِ لِصَمَمِهِ صوتَ الحوافرِ فَصَدَمَتْهُ دابَّةُ الخادمِ، فَسقطَ عَلى رأسِهِ في هوَةٍ مِنَ الطَّريقِ، فَحملناهُ إِلى بيتِهِ كَالمُختلطِ (أي: فاقد الوَعي) يَتأَوَّهُ مِنْ رأْسِهِ وكانَ سَببَ وَفاتِهِ رَحِمَهُ اللهُ.

أَلَّفَ ثَعلبُ عدَّةَ كُتُبٍ منها:

- كتابُ اختلافِ النَّحويينَ.
- كتابُ المَصونِ في النَّحوِ.
- كتابُ مَجالسِ ثَعلب.
- كتابُ معاني القُرآنِ.
- كتابُ المُختصرِ في النَّحوِ.

- كتابُ القِراءاتِ.
- كتابُ مَعاني الشِّعرِ.
- كتابُ التَّصغيرِ.
- كتابُ ما يَنصرِفُ وما لا يَنصرِفُ.
- كتابُ غريبِ القُرآنِ.
- كتابُ حَدِّ النَّحوِ.

وكانَ كتابُ اختلافِ النَّحويينَ أَهمَّها عَلى الإطلاقِ، فثَعلب أَوَّلُ عُلماءِ النَّحوِ الَّذِيْنَ كَتبوا في مسائِلِ الخِلافِ بينَ النَّحويينَ، وبِشكلٍ خاصٍّ بينَ الكوفيينَ والبَصريينَ، ولِهذا يُعتبَرُ رائدَ البَحثِ في الخِلافِ بينَ النَّحويينَ.

الأَسْئِلَةُ وَالْمُنَاقَشَةُ

1 ـ بِماذا بَشَّرَ النَّبيُّ الأَعظمُ ﷺ في الرُّؤيا أَبا العبَّاسِ ثَعلباً؟

2 ـ لِماذا علمُ النَّحوِ علمٌ خالدٌ؟

3 ـ لِماذا يُعدُّ أَبو العبَّاسِ ثَعلب مِنْ أَعظمِ عُلماءِ العربيَّةِ والنَّحوِ؟

4 ـ أَينَ ولدَ أَبو العبَّاسِ ثَعلب وأَينَ نَشأَ، وبِماذا تأثَّرَ؟

5 ـ مَتى بَدأَ أَبو العبَّاسِ ثَعلب النَّظرَ في كتبِ النَّحوِ، ومتَى اكتملَ تَحصيلهُ للعلمِ؟

6 ـ ما هيَ أَهمُّ صفاتِ أَبي العبَّاسِ ثعلب؟

7 ـ بِماذا كانَ يَسبقُ المُبَرِّدُ أَبا العباسِ ثَعلباً؟

8 ـ ما هو سببُ موتِ أَبي العبَّاسِ ثعلب؟

أَبو إسحاق الزَّجَّاج
مُعلِّمُ علمِ النَّحو
(241 ـ 311هـ)

أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَّاجُ، مُعلِّمُ علمِ النَّحوِ، وأَوَّلُ عالمٍ ومُتعلِّمٍ يُعطي ويَأْخذُ أَجراً عَلى التَّعلُّمِ والتَّعليمِ بينَ عُلماءِ اللُّغةِ والنَّحوِ قاطبةً، وهوَ أَوَّلُ مَنْ نُدِبَ مِنْ قِبَلِ شيخِهِ وأُستاذِهِ لِتعليمِ اللُّغةِ والنَّحوِ لأَولادِ الأَعيانِ والكُبراءِ بِشكلٍ رَسميٍّ في تاريخِ هذا العلمِ، وذَلكَ مُقابلَ أَجرٍ أَو عَطاءٍ.

أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَّاجُ، واحدٌ مِنْ عُلماءِ العربِ والإِسلامِ الَّذينَ تَخصَّصوا في عُلومِ اللُّغةِ والنَّحوِ، وأَسهَموا في ازْدِهارِها وانتِشارِها بينَ النَّاسِ، وسَعَى إِلى تَسهيلِها لِكُلِّ باغي علمٍ، وطالبِ مَعرفَةٍ، وكانَ لَهُ الفَضلُ في نَقلِ وشَرحِ وتَسهيلِ مُؤلَّفاتِ وبُحوثِ ومُصنَّفاتِ «الخَليلِ بنِ أَحمدَ الفَراهيديِّ» لِلأَجيالِ القَريبَةِ والبَعيدةِ مِنْ عَصرِهِ وزَمنِهِ، فَعلَ ذَلكَ بِتكليفٍ مِنْ خَليفةِ المُسلمينَ حينَها، فَأَبدعَ في هذا الأَمرِ وأَجادَ بِشكلٍ جَعلَ عُلماءَ عَصرِهِ ومَنْ أَتَى بَعدَهُمْ يَحمدونَهُ عَلى هذا العملِ الَّذي قَدَّمَهُ خِدمةً لِلغُةِ العربِ، لُغةِ التَّنزيلِ الحكيمِ، ولُغَةِ أَهلِ الجَنَّةِ، وأَهلِ السَّماءِ.

كما أَنَّ «أَبا إِسْحَاقَ الزَّجَّاجَ» مِنْ جَهابِذَةِ عُلمائِنا المَعدودينَ الَّذينَ تَعلَّموا وتَلَقُّوا عِلمَهُمْ في الكِبَرِ، فَجلسَ لِطلبِ العِلمِ وهوَ شابٌّ كبيرٌ قَدْ ناهزَ الثَّلاثينَ مِنْ عُمُرِهِ تقريباً، وانْكَبَّ عَلى العِلمِ بينَ يَدَي مُعلميهِ بِشَغفٍ وشَوقٍ وحماسٍ مُنقطعِ النَّظيرِ؛ حَتَّى إِذا ما ثَبَتَتْ أَقدامُهُ في العلمِ، وصارَ مِنَ الرَّاسخينَ فيهِ، طَفِقَ يَبغي نَشرَهُ وتَعليمَهُ بينَ النَّاسِ مُقتفياً أَثرَ شُيوخِهِ ومُعلميهِ. وبِوقتٍ وَجيزٍ أَصبحَتْ لَهُ شهرةٌ واسعةٌ، ومِنْ ثَمَّ أُلقيَتْ إِليهِ مقاليدُ الرِّيادةِ في علمِ النَّحوِ بَعدَ شيوخِهِ ومُعلِّميهِ.

عُرفَ أَيضاً بِحُسنِ وَرعِهِ، ونقاءِ خُلُقِهِ ودينِهِ، فَكانَ على قَدرٍ كبيرٍ مِنَ الأَخلاقِ الفاضلةِ، نَزيهَ السُّلوكِ، مُخلصَ العَقيدةِ، يَبتَغي مِنْ وراءِ علمِهِ مَرضاةَ رَبِّهِ، وخِدمَةَ القُرآنِ الكريمِ، مِنْ خِلالِ شَرحٍ وتَفسيرِ مَعانيهِ، وتَقريبِها مِنْ أَذهانِ وعُقولِ العامَّةِ، فكانَ مُفسِّراً وشارِحاً لِمعاني القُرآنِ، ولِأَلفاظِهِ الجَزلَةِ والقَويَّةِ. وفَوقَ هذا وذاكَ، كانَ شاعراً ومُحدِّثاً وراويَةً ثِقةً عِندَ عُلماءِ العربيَّةِ، وعُلماءِ الرِّوايَةِ والحديثِ الشَّريفِ.

ولا يَفوتُنا أَنْ نُلمحَ في هذِهِ المُقدِّمةِ المُقتضَبَةِ عَنْ «أَبي إِسْحَاقَ الزَّجَّاجِ» أَنَّهُ يُعتبرُ - بِحقٍّ - مِنَ البارِّينَ والمُقسطينَ بِفضلِ شيوخِهِمْ ومُعلِّميهِمْ، حيثُ أَجرَى مُرَتَّباً شَهرياً مِنْ فُضولِ مالِهِ عَلَى أُستاذِهِ وشَيخِهِ، مِنْ أَوَّلِ جُلوسِهِ عندَهُ لِلعلمِ، وحَتَّى تَخرُّجِهِ مِنْ مَجلسِهِ لَمْ يَقطَعْ عَطاءَهُ عَنْ شَيخِهِ حَتَّى وَفاتِهِ. وبَعدَ ذَلكَ قَلَّدهُ طَلبَةُ العلمِ والعُلماءُ في هَذِهِ السُّنَّةِ الحَسنةِ الَّتي سَنَّها مُنذُ ذَلِكَ الحينِ[1].

---

(1) كان العلماء عادةً قبل ذلك لا يفرضون ولا يأخذون أجراً من تلاميذهم مقابل تعليمهم، غير ما يفرضه =

فَمَنْ هوَ «أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَّاجُ»، وأَينَ عاشَ، وما هيَ أَهمُّ مَعالمِ حياتِهِ؟

هذا ما سَنعرفُهُ عبرَ هذِهِ الصَّفحاتِ.

❋ ❋ ❋

هوَ: «أَبُو إِسْحَاقَ إِبراهيمُ بنُ مُحمَّدِ بنِ السِّريِّ بنِ سَهلٍ» ولُقِّبَ بِالزَّجاجِ لأَنَّهُ كانَ يَمتهنُ حرفةَ صِناعةِ الزُّجاجِ قَبلَ اشتغالِهِ بِالعلمِ، فَذكرَ غيرُ واحدٍ مِنَ المُؤرِّخينَ، أَنَّهُ كانَ يَخرطُ الزُّجاجَ قَبلَ طلَبِهِ علمَ النَّحوِ.

ولِدَ في بَغدادَ سنةَ (241) هجريَّةً، ونَشأَ وتَرعرعَ فيها ولَمْ يُغادرْها حتَّى ولا مرَّةً واحدةً في حياتِهِ، وقَدْ أُثِرَ عَنهُ أَنَّهُ مِنْ حُبِّهِ وتَعلُّقِهِ بِمَسقطِ رأَسِهِ كانَ يَراها أَعرقَ مُدنِ الأَرضِ قاطبةً، فَقالَ عَنها: «بَغدادُ حاضرَةُ الدُّنيا، وما عَداها باديَةٌ»[1].

ورُبَّما كانَتْ أُسرةُ «أَبي إِسْحَاقَ» فَقيرةً فَاضطرَّ إِلى العَملِ في خراطةِ الزُّجاجِ منذُ صغرِهِ لِتَحصيلِ لُقمةِ العيشِ، أَو رُبَّما كانَ يَتيماً ماتَ أَبوهُ وهوَ صَغيراً، فَعاشَ معَ أُمِّهِ وقَضَى مَعها حَياتَهُ حَتَّى موتِها. ويَدلُّ عَلى ذَلكَ ما ذَكرهُ «ابنُ شاكرِ الكُتبيُّ» في كتابِهِ «فوات الوفيَّاتِ» في معرضِ حديثِهِ عَنْ أَبي بَكرٍ الجَصَّاصِ عَندما دخَلَ عَلى «أَبي إِسْحَاقَ الزَّجَّاجِ» يُعزِّيهِ بِموتِ أُمِّهِ.

كانَتْ مَدينةُ بَغدادَ، عامرةً بِالعُلماءِ والأُدباءِ، وكانَ عِلمُ النَّحوِ الشُّغلَ الشَّاغل لِلخاصَّةِ

= الخلفاء الولاة والأعيان والأثرياء لهم، فكان الزجاج أول من سن هذه السنة الحسنة بين الناس.

(1) انظر في كتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب» للنويري.

ولِلعامَّةِ مِنَ النَّاسَ، فَكثيراً ما كانَتْ تُعقَدُ المجالسُ، وتُقامُ المُناظراتُ بينَ النَّحويينَ، الَّتي يَحضرُها جَمعٌ غفيرٌ مِنَ النَّاسِ، ويَنتشرُ خبرُها، وتُصبحُ حديثَ الكبيرِ والصَّغيرِ، فَكانَ «أَبُو إِسْحَاقَ» يَحضرُ بَعضَها، فَأَلقَى اللهُ في قَلبهِ مَحبَّةَ عِلمِ النَّحوِ، وهوَ يَومئذٍ يَعملُ في خِراطَةِ الزَّجَّاجِ الَّتي أَكسَبَتْهُ عيشاً رَغيداً، ومالاً وَفيراً، فَتركَ كُلَّ ذَلِكَ وسَعَى في طلبِ علمِ النَّحوِ، وكانَ إِمامُ النَّحوِ «أَبو العبَّاسِ المُبَرِّدُ» قَدْ وَفدَ مِنَ البصرةِ إِلى بَغدادَ واجتمعَ عليهِ الطُّلَّابُ مِنْ كُلِّ حَدبٍ وصَوبٍ يَنهلونَ مِنْ علمِهِ ومَعرِفَتِهِ، فَلزمَ «أَبُو إِسْحَاقَ» مَجلسَهُ، وصارَ أَكثرَ تلاميذِهِ حَفظاً واجتهاداً.

ويَذكرُ «ياقوتُ الحمويُّ» في «مُعجمِ الأُدباءِ»: قالَ الخَطيبُ البَغداديُّ بإسنادِهِ، قالَ ابنُ دَستوريه النَّحويُّ، حَدَّثني الزَّجاجُ قالَ:

«كنتُ أَخرطُ الزُّجاجَ، فَاشتَهيتُ النَّحوَ، فَلزِمتُ «أَبا العبَّاسِ المُبَرِّدَ»، وكانَ لا يُعلِّمُ مَجَّاناً، وكانَ لا يُعلِّمُ بِأَجرٍ إِلَّا عَلى قَدْرِها، فقالَ لي: أَيُّ شَيءٍ صِناعَتُكَ؟

فقلتُ: أَخرطُ الزُّجاجَ، وكَسبي كُلّ يَومٍ درهمٌ ونصفٌ، وأُريدُ أَنْ تُبالغَ في تَعليمي، وأَنا أَشرطُ أَنْ أُعطيكَ كُلَّ يَومٍ درهماً أَبداً إِلى أَنْ يُفرِّقَ الموتُ بَينَنا، استَغنَيتُ عَنِ التَّعليمِ أَو احتَجتُ إِليهِ.

قالَ: فَلَزِمْتُهُ، وكُنتُ أَخدمُهُ في أُمورِهِ، ومعَ ذَلِكَ أعطيهِ الدِّرهمَ. فَنَصحَني بِالعلمِ حَتَّى استَقلَلتُ. فَجاءَهُ كتابٌ مِنْ بَعضِ الأَكابرِ مِنَ الصّراةِ[1]، يَلتَمسونَ مُعلِّماً نَحوياً لأَولادِهِمْ،

(1) الصراة: نهر يتشعب من الفرات ويجري في بغداد وقيل: هو جمع دجلة والفرات، أقيمت على ضفافه القصور وسكن الأغنياء والأكابر والأعيان.

فقلتُ لَهُ: أَسْمِني[1] لَهُمْ. فَأسْماني، فَخرجتُ فَكنتُ أُعلِّمُهُمْ وأَنفذُ إِليهِ في كُلِّ شَهرٍ ثَلاثينَ درهماً، وأَتفَقَّدُهُ بَعدَ ذَلِكَ بِما أَقدرُ عليهِ، وبَقيتُ مُدَّةً عَلى ذَلكَ، فَطلبَ «عبيدُ اللهِ بن سُليمانَ»[2] مُؤَدِّباً لِابنِهِ «القاسمِ»، فقالَ لَهُ المُبَرِّدُ: لا أَعرفُ لكَ إِلَّا رجلاً زَجَّاجاً عندَ قومٍ بِالصّراةِ. قالَ: فَكتبَ إِليهِمْ «عبيدُ اللهِ» فَاستَنزَلَهُمْ عَنِّي وأَحضرَني، وأَسلَمَ إِليَّ «القاسمَ» فَكانَ ذَلكَ سَببَ غِناي، وكنتُ أعطي أَبا العبَّاسِ المُبَرِّدَ بَعدَ ذَلكَ إِلى أَنْ ماتَ رَحمَهُ اللهُ تَعالَى».

كما أَنَّ «أَبا إِسْحَاقَ الزَّجَّاجَ» قَدْ سَمعَ إِلى النَّحويِّ «أَبي العبَّاسِ ثَعلب» الَّذي كانَ إِماماً بِالنَّحوِ بَعدَ المُبَرِّدِ، وجَرَتْ بَينَهُما مُناظراتٌ وحواراتٌ سَنتحدَّثُ عَنها في مَكانِها مِنْ هذِهِ القِصَّةِ.

❋ ❋ ❋

أَدَّبَ «أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَّاجُ» القاسمَ ابنَ الوَزيرِ عُبيدِ اللهِ أَحسَنَ تَأديبٍ، وعَلَّمَهُ آدابَ الدِّينِ والدُّنيا، إِضافَةً إِلى تَلقينِهِ بَعضَ مبادئِ اللُّغةِ والنَّحوِ، ولَمَّا ماتَ الوَزيرُ «عبيدُ اللهِ بنُ سُليمانَ» وَرثَ ابنُهُ «القاسمُ» الوزارةَ لِلمُعتضدِ بَعدَ موتِ أبيهِ، وكانَ «القاسمُ» قَدْ وعدَ «أَبا إِسْحَاقَ» إِنْ قُلِّدَ الوزارةَ بعدَ أَبيهِ أَنْ يُقرِّبَهُ مِنهُ، وأَنْ يَجري عليهِ العطاءَ، وحدثَ في حينِها

(1) أي: اجعلني مدرساً لأولادهم.

(2) كان من كبار أعيان الدولة في عهد المقتدر. ولما ولي المعتضد بعث إليه واستوزره فأحسن التدبير ونظم الأمور وكان يجلس للمظالم نيابةً عن الخليفة المعتضد.

أَنْ ماتَ العالمُ «مُحمَّدُ بنُ يَحيَى بنِ أَبي عبَّادٍ»[1] وكانَ نَديمَ الخليفَةِ المُعتضدِ، ووَضعَ لَهُ كتابَ «النُّطقِ» وجَعلهُ عَلى شَكلِ جَداولَ، فَطلبَ المُعتضدُ مِنْ وَزيرِهِ أَنْ يُحضرَ مَنْ يُفسِّرُ لَهُ هَذِهِ الجداولَ، فَكتبَ إِلى «أَبي العبَّاسِ ثَعلب» يَطلبُ منهُ شَرحَ تلكَ الجداولِ، فَلَمْ يَفهَمْها واعتذَرَ عَنْ شَرحِها. فَكتبَ إِلى «أَبي العبَّاسِ المُبَرِّدِ» فَجاوبَهُ بِدورِهِ بِأَنَّ شَرحَ تلكَ الجداولِ عملٌ شاقٌّ لا يَستطيعُهُ ولا يُطيقُهُ لِكبرِ سنِّهِ، ونَصَحَ المُبَرِّدُ الوزيرَ «القاسمَ بن عبيدِ اللهِ» أَنْ يُكلِّفَ بِهذا العملِ تلميذَهُ «أَبا إِسْحَاقَ الزَّجاجَ» فَوجدَها الوزيرُ فُرصَةً لِلبرِّ بِأُستاذِهِ «أَبي إِسْحَاقَ» وتَعريفِ الخليفةِ المُعتضدِ بِهِ.

قامَ «أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَّاجُ» بِشرحِ جداولِ كتابِ النُّطقِ لِمحبرَةِ النَّديمِ مُستعيناً بِكتُبِ اللُّغةِ الَّتي كانتْ بينَ يَديهِ، وأَعادَ تَنظيمَها وكتابَتها بِخطٍّ حَسنٍ وجَميلٍ، ثُمَّ جَعلَها في كتابٍ وجَلَّدها في نسخةٍ أَنيقةٍ وقَدَّمَها إِلى المُعتضدِ الَّذي أُعجبَ بِها أَيَّما إِعجابٍ، وأَمرَ لِلزَّجَّاجِ بِثلاثمئةِ دينارٍ.

وبِهذا السَّبَبِ صارَ لأَبي إِسْحَاقَ الزَّجَّاجِ مَنزلةٌ رَفيعةٌ عندَ المُعتضدِ، كما صارَ مُعلِّماً لأَولادِهِ، وبالغَ المُعتضدُ في إِكرامِهِ وعَطائِهِ، فَجعلَ لَهُ رِزقاً في القُدماءِ، ورزقاً في الفُقهاءِ، ورِزقاً في العُلماءِ، ثَلاثمئةِ دينارٍ يَتقَاضاها كُل شَهرٍ.

❋ ❋ ❋

(1) محمد بن يحيى بن أبي عباد كان يقال له «محبرة النديم» ويكنى بأبي جعفر، وكان وافر العلم حسن الأدب ينادم المعتضد.

لَزِمَ «أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَّاجُ» الوَزيرَ «القاسمَ بنَ عُبيدِ اللهِ»[1] طوالَ حياتِهِ، فَكانَ يُساعدُهُ في القيامِ بَأعباءِ الوزارةِ، وفي قَضاءِ حَوائِجِ النَّاسِ، ولَحقَهُ مِنْ جرَّاءِ ذَلكَ شهرةٌ واسعةٌ، فَضلاً عَنْ شهرتِهِ العلميَّةِ.

كما ظلَّ يَبرُّ أُستاذَهُ «المُبَرِّدَ» ويُجري عليهِ العَطاءَ، ويُواظبُ عَلى حُضورِ مَجلسِهِ، ويَذكرُ فَضلَهُ عليهِ، ويُدافعُ عَنهُ إِنْ ذكَرهُ أَحدُ العُلماءِ بِسوءٍ أَو حاولَ التَّقليلَ مِنْ مكانَتِهِ وعلمِهِ، وخاصَّةً مُنافسُهُ عَلى إِمامةِ النَّحوِ «أَبو العبَّاسِ ثعلب».

فَيذكرُ المُؤرِّخونَ أَنَّ «أَبا إِسْحَاقَ الزَّجَّاجَ» دخلَ يَوماً عَلى «أَبي العبَّاسِ ثعلب» ـ وكانَ يُدركُ سِرَّ المُنافسةِ الشَّديدةِ بينَ ثَعلب وبينَ أُستاذِهِ المُبَرِّدِ ـ فَنالَ ثَعلبُ مِنَ المُبَرِّدِ أَمامَهُ، غيرَ أَنَّ «أَبا إِسْحَاقَ» رَدَّ عليهِ رَدّاً مُفعماً.

يقولُ «أَبُو إِسْحَاقَ»:

«دخلتُ عَلَى أَبي العباس ثَعلب رَحمهُ اللهُ أَيَّامَ أَبي العبَّاسِ المُبَرِّدِ، وكانَ قَدْ أَملَى ـ يَعني المُبَرِّدَ ـ شَيئاً مِنَ المُقتَضبِ[2]، فَسلَّمتُ عليهِ وعندَهُ أَبو موسَ الحامضِ[3] وكانَ يَحسدني شَديداً ويُجاهرُني بِالعداوَةِ، وكنتُ أَلينُ لَهُ وأَحتملُهُ لِموضِعِ الشَّيخوخَةِ، فقال أَبو

(1) تولى الوزارة للمعتضد بعد موت أبيه عبيد الله بن سليمان بن وهب، واستمر وزيراً للخليفة المكتفي بن المعتضد، ولكن أغر به بعض الوجهاء عند الخليفة المكتفي فقتله.

(2) المقتضب: كتاب للمبرد صنف فيه شروحاً لقواعد علم النحو والتصريف.

(3) أبو موس الحامض: هو سليمان بن محمد البغدادي النحوي تلميذ ثعلب وخليفته في إمامة نحو الكوفيين، وسمي بالحامض لشراسة أخلاقه وطبعه.

العبَّاسِ لي: قَدْ حُملَ إِليَّ بَعضُ ما أَملاهُ هذا الخَلديُّ ـ يَعني المُبَرِّدَ ـ فَرأَيتُهُ لا يطوعُ لِسانَهُ بِعبارةٍ.

فقلتُ لَهُ: إِنَّهُ لا يَشكُّ في حُسنِ عبارتِهِ اثنانِ، ولَكنَّهُ سوءُ رأيكَ فيهِ يُعيبُهُ عندَكَ».

ولَقدْ كانَ «أَبُو إِسْحَاقَ» يَتعصَّبُ لِنَحوِ البَصريينَ، وإِليهِ انتَهَتْ إِمامَةُ النَّحوِ بَعدَ موتِ أُستاذِهِ «المُبَرِّدِ»، وكانَ دائِمَ الاجتهادِ والتَّحصيلِ والتَّأليفِ والتَّصنيفِ في علمِ النَّحوِ حَتَّى قيلَ عَنهُ: أَعلمُ أَهلِ العراقِ بِعلمِ النَّحوِ.

ورَغمَ تلكَ المُنافسةِ والعداوةِ الَّتي كانتْ عَلى أَشدِّها بينَ أَبي العباسِ ثَعلب، والمُبَرِّدِ أُستاذِ أَبي إِسْحَاقَ الزَّجَّاجِ، إِلَّا أَنَّ أَبا إِسْحَاقَ كانَ يُكِنُّ لِثعلب كُلَّ تَقديرٍ واحترامٍ كَأُستاذِهِ المُبَرِّدِ تَماماً، ويَذكرُ بِهذا الصَّددِ «ياقوتُ الحمويُّ» في كتابِهِ «مُعجمِ الأُدباءِ»: أَنَّهُ لَمَّا ماتَ «أبو العبَّاسِ ثَعلب» بَكَى «أَبُو إِسْحَاقَ»، فقالَ لَهُ أَحدُ العُلماءِ: ما بُكاؤُكَ؟

فَأَجابَهُ أَبُو إِسْحَاقَ: أَينَ يُذهبُ بِكَ؟ أَليسَ كانَ يُقالُ: أَحمدُ بنُ يَحيَى[1] جالسٌ، وإِبراهيمُ الزَّجَّاجُ اليَومَ! ثُمَّ قالَ ناعياً ثَعلب: ماتَ النَّاقدُ وذهبَتِ البَهارجُ.

وكانَتْ وَفاةُ أَبي العبَّاسِ ثَعلب بَعدَ موتِ أَبي العبَّاسِ المُبَرِّدِ أُستاذِ الزَّجَّاجِ بِعدَّةِ سَنواتٍ، فَكانَ «أَبُو إِسْحَاقَ» يَودُّه رغمَ ميلِهِ الشَّديدِ لِلمُبَرِّدِ.

عُرِفَ «أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَّاجُ» بِقوَّةِ إِرادَتِهِ وشَكيمَتِهِ، وباحتِمالِهِ لِلأَذَى، فَكانَ حليماً

(1) أحمد بن يحيى هو الاسم الحقيقي لأبي العباس ثعلب.

صَبوراً لا يَردُّ الإِساءَةَ بِمثلِها، وإنَّما كانَ يُعالجُ ذَلكَ بِأُسلوبِهِ الحسَنِ الَّذي يَدلُّ عَلى نَقاءِ خُلقِهِ ودينِهِ.

ومِمَّا ذُكرَ عَنْ عليٍّ بنِ عبدِ العزيزِ الطَّاهريِّ قالَ: أَخبرنا أبو محمَّد الوراقُ قالَ: كنتُ في شارِعِ الأَنبارِ (وهو طريقٌ في بغدادَ) وأَنا صَبيٌّ يومَ نيروزَ[1]، فعبرَ رجلٌ راكبٌ، فبادرَ بَعضُ الصِّبيانِ فقلبَ عليهِ ماءً، فَأَنشأَ يَقولُ وهوَ يَنفضُ رداءَهُ:

إِذا قَـلَّ مـاءُ الـوَجـهِ قَـلَّ حـيـاؤُهُ ولا خـيـرَ فـي وَجـهٍ إِذا قَـلَّ مـاؤُهُ

فَلمَّا عبرَ قيلَ لَنا: هذا أَبُو إِسْحَاقَ المُبَرِّدُ.

ويُذكرُ عَنْ «أَبي إسحاقَ الزَّجَّاجِ» أَنَّهُ كانَ رأراءً، أي: يَلدغُ بِلسانِهِ ويَلفظُ الرَّاءَ غَيناً، كما ذَكرَ «الجوَهريُّ» عنهُ في صِحاحِهِ، أَنَّهُ كانَ يَقولُ في العبرِ، وكانَ أَيضاً مُغرماً بِالطَّربِ والموسيقَى.

❋ ❋ ❋

لا شَكَّ أَنَّ «أَبا إسحاقَ الزَّجاجَ» كانَ عالماً موسوعيّاً، غَزيرَ الإِنتاجِ قِياساً إِلى حياتِهِ العلميَّةِ الَّتي عاشَها منذُ بِدايَةِ طلبِهِ لِلعلمِ وحَتَّى مَماتِهِ، وقد اختصَّ بِعلومِ اللُّغةِ مِنْ نَحوٍ وصَرفٍ وعروضٍ.

---

(1) وهو عيد النيروز وهو بالأصل عيد فارسي للمجوس كانوا يحتفلون به في شهر نيسان من كل عام، وقيل: كانوا يحتفلون به على رأس كل سنة قمريةٍ، وقلدهم العباسيون فيه.

ويَذكرُ «المُقريُّ» في «أَخبارِ النَّحويينَ» أَنَّ رِياسَةَ النَّحوِ في العراقِ انْتَهتْ إِليهِ معَ ابنِ كيسانَ بَعدَ موتِ المُبَرِّدِ.

ولَقَدْ بلغَ مِنْ مَكانَتِهِ العلميَّةِ عندَ أُستاذِهِ المُبَرِّدِ، أَنَّ «المُبَرِّدَ» كانَ لا يَعقِدُ مجلسَهُ العلميَّ لِتلامذَتِهِ وطُلَّابِهِ إِلَّا إِذا كانَ «أَبو إِسحاقَ الزَّجَّاجُ» حاضِراً، فَقَدْ ذَكرَ «ابنُ خلكانَ» في «وفيَّاتِ الأَعيانِ» عَنْ أَبي سُليمانَ الخَطَّابيِّ عَنْ أَحمدَ بنِ الحُسينِ الفَرائِضيِّ قالَ: «كانَ أَصحابُ «المُبَرِّدِ» إِذا اجتَمعوا واسْتَأْذَنوا يَخرجُ الآذنُ فَيقولُ: إِذا كانَ فيكُمْ «أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَّاجُ»، وإِلَّا فَانْصَرِفُوا».

وكما وَصفَهُ المُؤرِّخونَ أنه كانَ حسنَ العقيدةِ، جميلَ الطَّريقةِ، وصاحبَ اختيارٍ في عِلميِّ النَّحوِ والعروضِ، ولَهُ مُصنَّفاتٌ كثيرةٌ نُجملُها فيما يَلي:

1 ـ كتابُ ما فسَّرهُ مِنْ (جامعِ النُّطقِ) لِمحبرَةَ النديم «محمَّدِ بنِ يَحيَى بنِ أَبي عبَّادٍ».

2 ـ كتابُ «معاني القُرآنِ» وهوَ مِنْ أَهمِّ مُؤلَّفاتِهِ، ومِنْ أَغناها فائدةً عَلى الإِطلاقِ.

3 ـ كتابُ «الاشتقاقِ» في اللُّغةِ والنَّحوِ والتَّصريفِ.

4 ـ كتابُ «الأَمالي» وهوَ عَلى غِرارِ كتابِ «النَّوادرِ» لأُستاذِهِ المُبَرِّدِ، وكتاب «الأَمالي» لأَبي عليٍّ القاريِّ، ويبحثُ في اللُّغةِ والأَدبِ والأَخبارِ.

5 ـ كتابُ «القوافي».

6 ـ كتابُ «العروضِ»، ويبحثُ في قواعدِ علمِ العروضِ وفي أوزانِ الشِّعرِ.

7 ـ كتابُ «الفرقِ بينَ المُذكَّرِ والمُؤنَّثِ».

8 ـ كتابُ «خَلقِ الإنسانِ».

9 ـ كتابُ «خلقِ الفَرسِ».

10 ـ كتابُ «المُختصرِ في علمِ النَّحوِ».

11 ـ كتابُ «فعلَتْ وافتعَلَتْ».

12 ـ كتابُ «ما يَنصرِفُ وما لا يَنصرِفُ».

13 ـ كتابُ «الرَّدِّ عَلى فَصيحِ ثَعلب».

الأَسْئِلَةُ وَالْمُنَاقَشَةُ

1 ـ كيفَ يُمكنُنا تَصويرُ فضلِ الزَّجَّاجِ عَلى علمِ النَّحوِ؟

2 ـ بِماذا عُرِفَ أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَّاجُ؟

3 ـ لِماذا لُقِّبَ «أبو إِسْحَاقَ» بِالزَّجَّاجِ، وأينَ ولدَ؟

4 ـ كيفَ كانَ علمُ النَّحوِ عندما طلَبَهُ الزَّجَّاجُ؟

5 ـ عَلى يَدِ مَنْ مِنَ العُلماءِ تَتلمذَ الزَّجَّاجُ في علمِ النَّحوِ؟

6 ـ لِماذا صارَ لأَبي إسحاقَ الزَّجَّاجِ مَنزلةٌ رَفيعةٌ عندَ الخليفةِ المُعتضدِ؟

7 ـ بِماذا كانَ الزَّجاجُ يُساعدُ الوزيرَ القاسمَ بنَ عُبيدِ اللهِ؟

8 ـ ما هيَ المكانةُ العلميَّةُ الَّتي بَلغَها الزَّجاجُ عندَ أُستاذِهِ المُبَرِّدِ؟

ابنُ كيسان
زعيم المدرسة البغدادية
(. . . ـ 299هـ)

ابنُ كيسانَ، زَعيمُ المدرسَةِ البَغداديَّةِ في علمِ النَّحوِ، وتِلميذُ أَبي العبَّاسِ المُبَرِّدِ، وأَبي العبَّاسِ ثَعلب، مِنْ نُحاةِ العربِ القُدامَى الَّذِيْن تَشكَّلتْ بِمساعيهمْ وجُهودِهِمُ المعالِمُ الأَساسيَّةُ لِعلمِ النَّحوِ، وهوَ مِنَ النُّحاة المُجتهدينَ الَّذِيْن أَغْنَوا مباحث ومناهج علمِ النَّحوِ بِمنابعَ جديدةٍ تمثَّلَتْ بِجهودِهِ لِتقريبِ وجَهاتِ النَّظرِ بينَ آراءِ الكوفيينَ والبَصريينَ، وتَزعُّمِ مَدرسَةِ بَغدادَ الَّتِي وضِعَتْ لَبناتُها الأُولَى عَلَى يَدِ النَّحويَّينِ الشَّهيرَينِ أَبي العبَّاسِ المُبَرِّدِ، وأَبي العبَّاسِ ثَعلب.

تَميَّزَتْ آراءُ ابنِ كيسانَ في الأَبحاثِ النَّحويَّةِ بِالشَّفافيَّةِ والدِّقَّةِ، والبُعدِ عَنِ الخَوضِ في الخِلافاتِ الَّتِي أَرهَقَتِ الفِكرَ اللُّغويَّ والنَّحويَّ، وجَعَلَتْهُ في كثيرٍ مِنَ الأَحيانِ جافّاً وصَعباً يَحملُ في طَيَّاتِهِ الآراءَ الَّتِي أَطنبَ فيها أَصحابُها بِالحِجَجِ والبراهينِ الَّتِي لا طائِلَ مِنْها، ولا تُزيدُ علمَ النَّحوِ ومَعارِفَ اللُّغةِ العربيَّةِ إِلا جُموداً وتَراخياً عَنْ رَكبِ التَّطوُّرِ الحَضاريِّ والفِكريِّ والعِلميِّ الَّذِي شَهِدَهُ العالَمُ العربيُّ والإِسلاميُّ حينَها.

مزَجَ بينَ مَذهبِ البَصريِّينَ ومَذهبِ الكوفيِّينَ في ثَقافَتِهِ النَّحويَّةِ، وأَتَى بِمذهبٍ جَديدٍ يُوفِّقُ بينَ المَذهبينِ مَكَّنَهُ مِنْ تَزعُّمِ مَدرسَةِ بَغدادَ بَعدَ وفاةِ أُستاذِهِ أَبي العبَّاسِ المُبَرِّدِ، وقيادَةِ سَفينَةِ علمِ النَّحوِ إِلى بَرِّ الأَمانِ بِتوفيقٍ ونَجاحٍ مُنقَطعَي النَّظيرِ.

هذا، وإِنْ كانَ التَّاريخُ لَمْ يُنصِفِ «ابنَ كيسانَ»، ولَمْ يُعطِهِ حَقَّهُ ومَكانَهُ الطَّبيعيَّ بينَ عُلماءِ النَّحوِ، كما مَنحَهُ لِغَيرِهِ مِنَ العُلماءِ، سواءٌ الَّذِيْن كانوا قَبلَهُ، أَو أَتَوا بَعدَهُ، لَكِنَّ في طَيَّاتِ كُتُبِ التَّراجِمِ والتَّاريخِ واللُّغةِ ما يشيرُ بِقوَّةٍ ووضوحٍ إِلَى أَنَّه كانَ رائِداً في علمِ النَّحوِ، وأَهميَّتُهُ في هذا العِلمِ لا تَقلُّ عَنْ أَهميَّةِ الرُّوادِ الآخَرينَ كَالفَرَّاءِ والمُبَرِّدِ وثَعلب.

ومِنْ هُنا تَجدرُ بِنا الإِشارَةُ إِلى أَنَّ «ابنَ كيسانَ» انْتَهجَ نَهجاً جَديداً في أُسلوبِ الاستشهادِ عَلى آرائِهِ النَّحويَّةِ الَّتِي كانَ يَعرضُها عَلى تَلامذَتِهِ، يَعتَمدُ عَلى منهجِ المُفَسِّرينَ بالاسْتِشهادِ بِنصوصِ القُرآنِ أولاً، ثُمَّ بِنصوصِ الحديثِ، ثُمَّ بِكلامِ العربِ المُتَّفقِ عليهِ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ قاسَ عَلى ما اتَّفَقَتْ عليهِ العربُ مِنْ كَلامٍ.

كما تَجدرُ الإِشارَةُ، إِلَى أَنَّ «ابنَ كيسانَ» أَوَّلُ مَنْ بَحثَ في الاختلافِ بينَ النَّحويينَ بَعدَ أُستاذِهِ أَبي العبَّاسِ ثَعلب، وأَسَّسَ مَعَهُ فيما يُعرَفُ بِعلمِ الاختلافِ بينَ النَّحويينَ أَو عِلمِ النَّحوِ المُقارنِ إِنْ صَحَّ القَولُ.

فَمَنْ هوَ أَبو الحسَنِ بنُ كيسانَ، وما هي أَهمُّ مَعالِمِ حياتِهِ، وما هيَ مُصنَّفاتُهُ؟ هذا ما سَنعرفُهُ عبرَ الصَّفحاتِ التَّاليَةِ.

❋ ❋ ❋

هوَ أَبو الحَسَنِ مُحمَّدُ بنُ أَحمدَ بنِ إبراهيمَ، المَعروفُ بِابنِ كيسانَ، وكَيسانُ لَقَبٌ، قيلَ: كانَ لأَبيهِ ـ وهذا ما يرَجِّحُهُ بعضُ المُؤَرِّخِينَ ـ وقيلَ: كانَ لِجَدِّهِ، وهوَ اسمٌ علمٌ في الأَصلِ أَعجميٌّ، واشتُهرَ عندَ العربِ قَديماً منذُ ظهور الإِسلامِ. «كيسانُ» اسمُ صَحابيٍّ كانَ مولَى لِرسولِ اللهِ ﷺ. وفي جَمهرةِ الأَمثالِ لأَبي هلالٍ العَسكريِّ: إِنَّ العربَ كانَتْ تُسَمي الغدرَ قَديماً بِـ «كيسانَ»، وقَدْ عُرِفَ عندَ العربِ المَثلُ القائِلُ: «أَغدرُ مِنْ كُناةِ الغَدرِ»، ويُقصَدُ بِهِمْ بَنو سَعدِ بنِ تَميمٍ، فَيُقالُ لَهُمْ بَنو كيسانَ مِنْ بابِ التَّحقيرِ، أَي أَبناءُ الغَدرِ، وفي ذَلكَ يَهجوهُمْ أَحدُ شُعراءِ العربِ:

إِذا كُنتَ في سَعدٍ وأُمُّكَ مِنهُمْ غَريباً فَلا يغررْكَ خالُكَ مِنْ سَعدِ

إِذا ما دعَوا كيسانَ كَانَتْ كُهولُهُمْ إِلى الغَدرِ أَدنَى مِنْ شَبابِهِمُ المُردِ

كما اشتُهرَ بِهذا اللَّقبِ أَو الاسمِ عَددٌ كبيرٌ مِنْ أَعلامِ العربِ والإِسلامِ، مِنهُمُ العالمُ الزَّاهدُ التَّابعيُّ طاوسُ بنُ كيسانَ، والراويَةُ المُحدِّثُ صالحُ بنُ كيسانَ ـ وكانَ يُؤَدِّبُ أَبناءَ عُمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ـ وتَوبَةُ بنُ كيسانَ، وسَعيدُ بنُ كيسانَ المعروفُ بِأَبي سَعيدٍ المقبريِّ، ووَهبُ بنُ كيسانَ، والصَّحابيُّ المَشهورُ أَبو عَبدِ الرَّحمنِ بنُ كيسانَ، الَّذِي قُتِلَ أَبوهُ كيسانُ في مَعركةِ أُحُدٍ، وكيسانُ أَيضاً اسمٌ يُطلَقُ عَلى أَحدِ الأَبوابِ القديمةِ لِمدينةِ دِمشقَ هوَ بابُ كيسانَ.

ولِدَ أَبو الحَسنِ بنُ كيسانَ في البَصرةِ مَدينَةِ العِلمِ والعُلماءِ، والمَعقلِ الأَوَّلِ لِعلمِ النَّحوِ، وحاضنَةِ عُلماءِ اللُّغةِ العربيَّةِ والنُّحاةِ، ولَمْ يَذكُرْ لَنا المُؤَرِّخونَ عامَ وِلادَتِهِ، ولا شَيئاً عَنْ نَشْأَتِهِ أَو طُفولَتِهِ، وإِنَّما ذَكروا لَنا أَنَّهُ أَخذَ العِلمَ عَنْ إِمامِ نُحاةِ البَصرةِ في

عَصرِهِ أَلا وهوَ أَبو العبَّاسِ المُبَرِّدُ، وعَنْ إِمامِ نُحاةِ الكوفَة في عَصرِهِ أَلا وهوَ أَبو العبَّاسِ ثَعلب، ثُمَّ لازمَ «ابنَ لرَّةَ» فَترةً طَويلَةً، وكانَ «ابنُ لرَّةَ» هذا إِمامَ عُلماءِ عَصرِهِ في علمِ الشِّعرِ ورِوايَتِهِ ونسبَتِهِ وتَفسيرِهِ.

وظاهرُ الأَمرِ أَنَّ «ابنَ كيسانَ» تَلقَّى عَنِ المُبَرِّدِ في البِدايَةِ في البَصرَةِ، ثُمَّ انتَقَلَ إِلى بَغدادَ ولَقيَ فيها أَبا العبَّاسِ ثَعلب وأَخذَ عَنهُ العِلمَ، كما تَعرَّفَ على «ابنِ لرَّةَ»[1] وأَقبلَ عَليهِ يَحفظُ عَنهُ الشِّعرَ وتَفسيرَهُ. فإضافةً إِلى تَمكُّنِهِ مِنْ نَحوِ الكوفيينَ والبَصريينَ وبَراعَتِهِ فيهِما، بَرعَ في عِلمِ الشِّعرِ ورِوايَتِهِ وتَفسيرِهِ، ورُبَّما كانَ هذا سِرَّ نَجاحِهِ وتَفوُّقِهِ عَلى أَعيانِ عَصرِهِ، ورُبَّما هذا ما دَفعَ الإِمامَ الثِّقةَ الحِجَّةَ أبا بَكرٍ بنَ مُجاهدٍ[2] إِلى القَولِ: «كانَ ابنُ كيسانَ أَنْحَى مِنَ الشَّيخينِ» يَعني المُبَرِّدَ وثَعلب، وكانَا إِمامي النَّحوِ في عَصرِهِما.

ذاعَ صيتُ ابنِ كيسانَ في بَغدادَ وما جاورَها مِنْ قُرى وبُلدانٍ كَنَحويٍّ حاذقٍ بارعٍ في الشِّعرِ ورِوايَتِهِ، وخاصَّةً عندَما قَدمَ المُبَرِّدُ مِنَ البَصرةِ إِلى بَغدادَ والتَفَّ حولَهُ العُلَماءُ والأَعيانُ، فكانَ ابنُ كيسانَ مِمَّنْ يَحضرونَ مَجلسَهُ ويُشارِكونَ في النِّقاشِ العِلميِّ والأَدبيِّ، ورُبَّما صَوَّبَ لأُستاذِهِ المُبَرِّدِ بَعضَ الهَفواتِ، ويَذكُرُ بِهذا الصَّدَدِ ياقوتُ الحَمويُّ في مُعجَمِ الأُدباءِ عَنْ أَبي الطَّيِّبِ اللُّغويِّ أَنَّه رَوَى في كتابِ «مراتبِ النَّحويينَ» قالَ: كانَ ابنُ كيسانَ

(1) هو بندا بن عبد الحميد الكرخي الأصبهاني، قدم من الكرخ ونزل بغداد، وكان أحفظ أهل زمانه للشعر وأعلمهم به، وكان له في كل أسبوع دخلة على الخليفة المتوكل، وقد لقيه المبرد وأشاد بعلمه.

(2) هو أحمد بن موسى بن مجاهد المقري، كان شيخ القراء في عصره. مات سنة 245هـ، وقال عنه أبو العباس ثعلب: ما بقي من عصرنا هذا أعلم بكتاب الله من أبي بكر بن مجاهد.

يَسأَلُ المُبَرِّدَ فَيُجيبُهُ، فَيُعارِضُهُ بِقولِ الكوفيينَ، فَيقولُ في هذا عَلى مَنْ يَقولُهُ كَذا ويَلزمُهُ كَذا. فَإِذا رَضيَ (يَعني: المُبَرِّدَ) قالَ لَهُ: بَقيَ عليكَ شَيءٌ، لِمَ لا تَقولُ كذا؟

فَقالَ لَهُ المُبَرِّدُ يَوماً، وقَدْ لَزِمَ قولاً لِلكوفيينَ وَلجَ فيهِ، أَنتَ كَما قالَ جَريرُ:

أَسليكَ عَنْ زَيدٍ لِتَسلَى وقَدْ أَرى ... بِعَينَيكَ مِنْ زَيدٍ قَذى غيرَ جارِحِ

إِذا ذَكرت زيداً تَرَقرَقَ دَمعُها ... بِمذروفَةِ العينَينِ شوساءَ طامحِ

تَبكي عَلى زَيدٍ ولَمْ تَرَ مِثلَهُ ... بَراءٌ مِنَ الحمَّى صَحيحُ الجَوانِحِ

فَإِنْ تَقصدي فَالقَصدُ مِنكِ سَجيَّةٌ ... وإِنْ تَجمَعي تَلقِي لِجامَ الجَوامعِ[1]

❋ ❋ ❋

لا شَكَّ أَنَّ ابنَ كيسانَ كانَ عالِماً بِنَحوِ البَصريينَ ونَحوِ الكوفيينَ، ولَكنَّهُ كانَ إِلَى نَحوِ البَصريينَ أَميَلَ كما قيلَ عَنهُ، إِلَّا أَنَّهُ كانَ كَثيراً ما يَستَشهدُ بِنَحوِ الكُوفيينَ إِذا ما دَعَتِ الحاجَةُ، أَو وجدَ أَنَّ رأيَ الكوفيينَ أَوضَحُ وأَقوَى في المَقامِ، وتشهدُ على ذَلكَ مُحاوراتُهُ لأُستاذِهِ المُبَرِّدِ، ودِفاعُهُ عَنْ أَبي العبَّاسِ ثَعلب أمام المُبَرِّدِ عِندما كانَتِ المُنافَسَةُ دائِرةً بينَ إِمامي النَّحوِ، والخِلافُ عَلى أَشَدِّهِ بَينَهُما[2].

---

(1) يقصد المبرد من إيراد هذه الأبيات الإشادة بعلم ابن كيسان الغزير لما جمع بين جوانحه من سائر أطراف علم النحو، وتبقى عيناه مشدودتين تنضحان بالعلم تماماً كعيني العاشقة الوالهة المتيمة تذرفان بالدموع كلما ذكر المحبوب أمامها.

(2) إن أصل الخلاف بين الكوفيين والبصريين كان من ناحية الاستشهاد في الكلام والأشعار في النحو، =

ثُمَّ إِنَّ فِقهه بِالنَّحوينِ (الكوفيِّ والبَصريِّ) مَكَّنَهُ مِنْ أَخذِ أَحسن وأَقوَى ما فيهِما مِنْ آراء ومبادئَ وقَواعدَ، وكَذَلِكَ مِنْ تَزعُّمِ مَدرسَةِ بَغدادَ الَّتِي مازَجَتْ بينَ النَّحوينِ وقَرَّبَتْ بينَهُما، بَلْ يَرى بَعضُ الباحثينَ القُدامَى والحديثينَ أَنَّ آراءَ مَدرسَةِ بَغدادَ في علمِ النَّحوِ نَضَجَتْ وتَبلوَرَتْ بِجهودِ ابنِ كيسانَ وعلمِهِ وثَقافَتِهِ، مُستَفيداً مِنَ الخلافِ الَّذِي كانَ قائِماً حينَها بينَ المُبَرِّدِ وثَعلب، ومِنَ الرُّدودِ الَّتِي كانَتْ سِجالاً بينَهُما.

يَقولُ أَحدُ الباحثينَ المُعاصرينَ: «وفي حَقيقَةِ الأَمرِ لَمْ تَخلُ خُصومَةُ ثَعلب والمُبَرِّدِ مِنَ الفائِدةِ، فَقَدْ أَثارَتْ مُناظراتُهُما البَحثَ والدَّرسَ اللُّغويَ، والتَّعليلَ المَنطقيَّ، واسْتفادَ عُلماءُ اللُّغةِ في بَغدادَ مِنْ هذا الجَوِّ العامِّ، فَنَشأَتْ مَدرسَةٌ جَديدةٌ تَأْخذُ مِنْ كِلا المَدرسَتينِ، معَ تَبَنيها لآراء أَكثرَ مَنطقيَّةً مُؤسسينَ بِذلكَ مدرسةً نَحويَّةً وَسطيَّةً أُطلِقَ عَليها المَدرسَةُ البَغداديَّةُ الَّتِي تَزَعَّمَها ابنُ كيسانَ».

وقالَ بَعضُهُمْ أَيضاً: «إِنَّ ابنَ كيسانَ ابتدأَ المدرسَةَ البَغداديَّةَ بِبراعةٍ، فَهوَ يُعلِّقُ عَلَى آراءِ الكوفيينَ والبَصريينَ مُمَحِّصاً دارِساً مُستَوضِحاً، فَيأْخذُ لِنَفسِهِ حجَّةَ آراءَ البَصريينَ،

= فأقطاب المدرسة البصرية شددوا في رواية الأشعار والأمثال والخطب وشرطوا للاستشهاد بها في قواعد علم النحو أن تكون جارية على ألسنة العرب وكثيرة الاستعمال في كلامهم بحيث تمثل اللغة الفصحى خير تمثيل، وحينما يواجهون بعض النصوص التي تخالف قواعدهم، كانوا يرمونها بالشذوذ أو يتأولونها حتى تنطبق عليها قواعدهم.

أما أقطاب المدرسة الكوفية فقد اتسعوا في الرواية عن جميع العرب بدواً وحضراً، واعتدوا بأقوال وأشعار المتحضرين من العرب ممن سكنوا حواضر العراق، واعتمدوا الأشعار والأقوال الشاذة التي سمعوها من الفصحاء العرب والتي وصفها البصريون بالشذوذ.

وأُخرَى مِن الكوفيينَ، وفي الحالينِ يَختارُ لِنَفسِهِ آراء خاصَّةً يَجتَهدُ فيها فَيُجوِّزُ ما مَنعَهُ الكوفيُّونَ أَو البَصرِيونَ، ويَصنعُ بَعدَ ذَلكَ آراء جديدةً وليدةَ إِعمالِ فِكرِهِ».

❋ ❋ ❋

اشتُهرَ «ابنُ كيسانَ» بِأخلاقِهِ الحَسنةِ، وصفاتِهِ الحميدةِ، فَكانَ تَقيّاً وَرِعاً وَقوراً صاحبَ تَواضُعٍ جَمٍّ، بَعيداً كُلَّ البُعدِ عَنِ الكبرِ والعجبِ والغُرورِ، وكانَ يَجودُ بِعلمِهِ لِكُلِّ سائِلٍ، ويُقبلُ عَلى النَّاسِ مَهما كانَ شَأْنُهُمْ أَو حالُهُمْ في الحياةِ. وكانَ إِذا رَأى ما لا يُعجبُهُ مِنْ فِعلٍ ذَميمٍ، أَو سَمعَ مُنكراً مِنَ القَولِ، ردَّ على ذَلكَ بِأُسلوبِ العالمِ الأَديبِ والظَّريفِ.

قالَ أَبو حيَّانَ التَّوحيديُّ: «ما رأيتُ مجلساً أَكثرَ فائِدةً وأَجمعَ لأَصنافِ العلومِ وخاصَّةً ما يَتعلَّقُ بِالتُّحفِ والطُّرَفِ والنُّتفِ مِنْ مجلسِ ابنِ كيسانَ، فَإِنَّهُ كانَ يَبدأُ بِأَخذِ القُرآنِ والقِراءاتِ ثُمَّ بِأَحاديثِ الرَّسولِ ﷺ، فَإِذا قُرِئَ خَبرٌ غَريبٌ أَو لَفظةٌ شاذَّةٌ أَبانَ عَنها وتكلَّمَ عليها وسَأَلَ أَصحابَهُ عن مَعناها، وكانَ يُقرأُ عليهِ مُجالساتُ ثَعلب (كتابٌ صَنَّفَهُ أَبو العبَّاسِ ثَعلب) في طَرَفي النَّهارِ، وقَدِ اجتمعَ عَلى بابِ مَسجدِهِ مئةُ رأسٍ مِنْ دوابِّ الرُّؤساءِ والكُتَّابِ والأَشرافِ والأَعيانِ الَّذِيْن قَصدوهُ، وكانَ معَ ذَلكَ يُقبلُ عَلى صاحبِ الثِّيابِ المُمزَّقةِ والعباءِ الخَلِقِ، والطِّمرِ البالي، كَإِقبالِهِ عَلى صاحبِ القَصبِ والمُوشَّى والدِّيباجِ والدَّابَّةِ والمَركبِ والحاشيةِ.

ويَوماً بَعدَ يَومٍ جَرَى في مَجلِسِهِ ما امتعضَ منهُ وأَنكرَهُ وقَضَى منهُ عَجباً، وأَنشدَ في تِلكَ الحالةِ مِنْ غُرَرِ الشِّعرِ والمُقطَّعاتِ الحسنَةِ وغيرِها ما مَلأَ السَّمعَ وحيَّرَ الأَلبابَ حَتَّى قالَ

الصَّابئُ: هذا الرَّجلُ مِنَ الجنِّ إلَّا أَنَّهُ في صورةِ إنسانٍ. وأَنشدَ ابنُ كيسانَ في تِلكَ الحالِ:

ما لي أرَى الدَّهرَ تغلى عَجائِبُهُ أَبقَى لَنا ذَنَباً واستؤصِلَ الرَّاسُ

إنَّ الجَديدينِ في طولِ اختلافِهما لا يَنقُصانِ ولَكِنْ يَنقصُ النَّاسُ

أَبقَى لَنا كُلَّ مَحمولٍ وفَجَعنا بِالحاملينَ فَهُمْ أَلواءُ أَرماسُ

يَرَونَ أَنَّ كِرامَ النَّاسِ إنْ بَذَلوا حَمقَى وأَنَّ لِئامَ النَّاسِ أَكياسُ»

ومِنْ تواضُعِهِ المَحمودِ ما حدَّثَ بِهِ أَبو بَكرٍ بنُ مَبرمانَ، قالَ: قَصَدتُ ابنَ كيسانَ لأَقرأَ عليهِ كتابَ سيبويه، فَامتَنَعَ وقالَ: اذهَبْ بِهِ إلى أَهلِهِ، يَعني: الزَّجَّاجَ وابنَ السَّرَّاجِ.

وما ذَكرَهُ ياقوتُ الحمويُّ، أَنَّ النَّحويَّ الكبيرَ «أَبا مُحمَّدٍ الترسابادِيَّ» حَضرَ يَوماً مجلسَ النَّحويِّينَ في بَغدادَ، فَسُئِلَ عَنْ مَسأَلةٍ وابنُ كيسانَ حاضرٌ، فَانقَبضَ عنِ الإجابَةِ إجلالاً لِابنِ كيسانَ، فَقالَ لَهُ ابنُ كيسانَ: يا أَبا مُحمَّدٍ، أَجِبْ، فواللهِ أَنتَ أَحقُّنا بِالكلامِ.

❋ ❋ ❋

كانَ ابنُ كيسانَ وافرَ العِلمِ، جامعةً لِمعارفِ ومذاهبِ علمِ النَّحوِ، غزيرَ الإنتاجِ والتأليفِ، دَلَّتْ عَلى أهميَّةِ مَكانَتِهِ بينَ عُلماءِ النَّحوِ مُؤلَّفاتُهُ ومُصَنَّفاتُهُ الَّتِي كانَتْ رافِداً جَديداً يُضافُ إلى المصادرِ الأَساسيَّةِ لِعلمِ النَّحوِ، وهيَ كالتَّالي:

1 ـ كتابُ المُهذَّبِ في النَّحوِ.

2 ـ كتابُ غَلطِ أَدبِ الكاتبِ.

3 ـ كتابُ اللَّاماتِ.

4 ـ كتابُ الحقائِق.

5 ـ كتابُ البُرهانِ.

6 ـ كتابُ مصابيحِ الكتابِ.

7 ـ كتابُ الهجاءِ.

8 ـ كتابُ غَريبِ الحديثِ.

9 ـ كتابُ الوَقفِ والابتداءِ.

10 ـ كتابُ القِراءاتِ.

11 ـ كتابُ التَّصاريفِ.

12 ـ كتابُ الشَّاذاني في النَّحوِ.

13 ـ كتابُ المُذكَّرِ والمُؤنَّثِ.

14 ـ كتابُ المَقصورِ والمَمدودِ.

15 ـ كتابُ معاني القُرآنِ.

16 ـ كتابُ المُختصرِ في النَّحوِ.

17 ـ كتابُ المَسائِلِ على مَذهبِ النَّحويينَ مِمَّا اختلفَ فيهِ البَصريونَ والكوفيونَ.

18 ـ كتابُ المُختارِ مِنْ علمِ النَّحوِ.

19 ـ كتابُ تَلقيبِ القوافي وتَلقيبِ حَركاتِها.

هذا، وقَدْ ذَكرَ أَبو العلاءِ المَعريُّ في كتابِهِ «رِسالَةِ المَلائِكةِ» ابنَ كيسانَ بِعلمِهِ

وبِمعرفَتِهِ لِمذاهبِ النَّحويينَ، وهوَ يُناقشُ مَسألَةً ذَكرَها ابنُ كيسانَ في كتابِهِ المُهذَّبِ.

توفيَ سنةَ (299) هجريَّةً في خِلافَةِ أَبي جعفرٍ المُقتدرِ بِاللهِ العبَّاسيِّ ابنِ الخليفَةِ المُعتَضِدِ بِاللهِ.

وفي الختامِ بَقيَ علينا أَنْ نُشيرَ إِلَى بَعضِ آرائه الَّتِي أضفَى عليها فِكرَهُ النَّحويَّ المَنطقيَّ، فَقَدْ نَقلَ الزَّجاجيُّ عَنه حدَّ الاسمِ بِقولِهِ: «الأَسماءُ ما أبانَتْ عَنِ الأَشخاصِ، وتَضمَّنتْ معانيها نَحوُ: رَجلٌ، وفَرسٌ»، ثُمَّ قالَ: ولِابنِ كيسانَ في كُتُبِهِ حدودٌ لِلاسمِ غيرُ هذا، هي مِنْ جنسِ النَّحويينَ، وحدُّهُ في الكتابِ المُختارِ بِمثلِ الحدِّ الَّذِي ذَكرناهُ مِنْ كلامِ المَنطقيينَ، يُريدُ حدَّهُمْ لَهُ بِقولِهِم: «الاسمُ صَوتٌ موضوعٌ دالٌّ بِاتِّفاقٍ عَلَى مَعنى غيرِ مَقرونٍ بِزمانٍ».

ولعلَّ هذا يُوضِحُ أَنَّ ابنَ كيسانَ كانَ يَأخذُ نَفسَهُ بِثقافَةٍ منطقيَّةٍ، وقَدْ ذَكرَ مُؤرِّخوهُ أَنَّهُ كانَ يَمتازُ بِحدَّةِ خاطرِهِ، وبِمَدِّ غَوصِهِ، وغرائِبِ قياساتِهِ، ويَضربونَ عَلى ذَلِكَ مثلاً، أَنهُ سُئِلَ عَنْ قِراءَةِ آيَةٍ مِنْ سورَةِ طَهَ ﴿هَٰذَانِ لَسَٰحِرَانِ﴾ [طه: 63] ما وَجهُها مِنَ الإِعرابِ؟ قالَ: نَجعلُها مبنيَّةً (أَي: تَلزمُ الأَلف في حالَتي النَّصبِ والجرِّ).

وسُئِلَ عَنْ عِلَّةِ بِنائِها، فقالَ: لأَنَّ المُفرَدَ مِنها مَبنيٌّ وهوَ (هذا)، وكَذلِكَ الجَمعُ (هؤلاءِ) فَنجعلُها مبنيَّةٌ مِثلهُما.

الأَسْئِلَةُ وَالْمُنَاقَشَةُ

1 ـ بِماذا تَميَّزَتْ آراءُ ابنِ كيسانَ في الأَبحاثِ النَّحويَّةِ؟

2 ـ بِم نَستَدلُّ عَلى أَنَّ «ابنَ كيسانَ» كانَ رائِداً في علمِ النَّحوِ؟

3 ـ ما هوَ المنهجُ الَّذِي اتَّبَعُهُ ابنُ كيسانَ في الاستشهادِ عَلى آرائِهِ النَّحويَّةِ؟

4 ـ عَمَّنْ أَخذَ ابنُ كيسانَ العلمَ؟

5 ـ مَتَى كانَ ابنُ كيسانَ يَستَشهدُ بِآراءِ الكوفيينَ؟

6 ـ بِماذا مَكَّنَ ابنَ كيسانَ فِقهُهُ بِالنَّحوينِ (الكوفيِّ والبَصريِّ)؟

7 ـ ما هيَ أَهمُّ صِفاتِ ابنِ كيسانَ؟

8 ـ ماذا كانَ جوابُ ابنِ كيسانَ لَمَّا سُئِلَ عَنْ تَفسيرِ آيةٍ من سورةِ طٰه؟

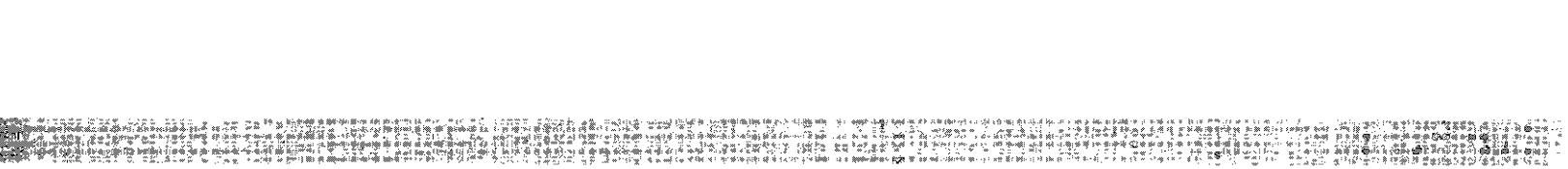

ابنُ مالك الطائيُّ
سَارحُ علمِ النحو
(600 ـ 672هـ)

ابنُ مالكٍ الطَّائيُّ، شارحُ علمِ النَّحوِ، وواضِعُ أَلفيَّةِ «ابنِ مالكٍ» الَّتِي تَتَضمَّنُ أَلفَ بيتٍ شِعريٍّ جَمعَ فيها قَواعِدَ اللُّغةِ العربيَّةِ وقَواعدَ النَّحوِ والصَّرفِ أَجلُّ مِنْ أنْ يُعرَّفَ في هذا المَجالِ.

فَهوَ مِنَ الرُّوادِ المَعروفينَ الَّذِيْنَ نَبغوا في علومِ اللُّغةِ العربيَّةِ وبِشَكلٍ خاصٍّ في علمِ النَّحوِ، حيثُ أَخرجَهُ وقَدَّمهُ لِلنَّاسِ بِقالَبٍ جَديدٍ يَسهلُ عليهِمْ بِهِ تَداولُهُ ودراسَتُهُ وحِفظُهُ بِأَيسرِ الطُّرقِ والوَسائِلِ، وبِأَسهلِ القَواعدِ وأَسلَسها عَلى الفِكرِ والنَّفسِ.

قيلَ عَنهُ في الماضي: إنَّهُ لَمْ يَترُكْ لِعلمِ النَّحوِ حُرمَةً. ومَعنَى هذا، أَنَّهُ لَمْ يَدَعْ أَمراً واحداً يَتَعلَّقُ بِعلمِ النَّحوِ إِلَّا أَتَى عليهِ بَياناً وتَفصيلاً، وشَرحاً وتَفنيداً، حَتَّى حارَ العُلماءُ بِعلمِهِ وحِفظِهِ، وذكائِهِ ومَقدرَتِهِ عَلى الإِفهامِ والإِفحامِ.

أجل، لَقَدْ كانَ «ابنُ مالِكٍ» فَريدَ عَصرِهِ، ونابِغَةَ زَمانِهِ في عُلومِ اللُّغةِ والنَّحوِ، بَهرَ الأَلبابَ، وأَخذَ العقولَ بِعلمِهِ وتَعليمِهِ، فَأَكبَّ عليهِ العُلماءُ والطُّلَّابُ يَنهلونَ عَنهُ عُلومَ

اللُّغةِ والنَّحوِ، فَمدَحَهُ أَكابِرُ عُلماءِ عَصرِهِ، وقالوا فيهِ القَصائِدَ والأَشعارَ، وحَملوا عِلمَهُ إِلَى كافَّةِ أَنحاءِ العالَمِ العربيِّ والإِسلاميِّ.

وما يَزالُ فَضلُ «ابنِ مالِكٍ» عَلى انتشارِ عُلومِ اللُّغةِ والنَّحوِ ماثِلاً وحاضِراً بينَ أَيدينا إِلى يَومِنا هذا، حَيثُ يُقبِلُ طُلَّابُ العلمِ عَلى دِراسَةِ مُصَنَّفاتِهِ إِذا أَرادوا التَّمَكُّنَ مِنْ قَواعدِ اللُّغةِ والنَّحوِ، ومِن ثَمَّ كانَتْ أَلفيَّتُهُ «أَلفيَّةُ ابنُ مالِكٍ» ولا تَزالُ مَلهماً لِعُلماءِ اللُّغةِ والنَّحوِ عَلى الإِبداعِ والابتكاراتِ الفَنيَّةِ في شَرحِ قَواعدِ اللُّغةِ العربيَّةِ وبيانِ ضَوابِطِها.

ولا أُغالي إِنْ قُلتُ لَكُمْ يا أَعزَّائي أَنَّني لا أَستَطيعُ تَصويرَ أَو وَصفَ الفائِدةِ العَظيمَةِ الَّتِي جَنيتُها مِنْ حِفظي ودراسَتي لأَلفيَّةِ «ابنِ مالكٍ» في صِغَري أَثناءَ دراسَتي في المَرحلَةِ الثَّانويَّةِ في مَعهدِ العلومِ الشَّرعيَّةِ بِدمشقَ، حَيثُ مَكَّنَني رَبي مِنْ قَواعدِ اللُّغةِ بِفَضلِها، ومَلَّكني ناصيَةَ البيانِ، وظَلَّتْ نَفائِسُ وكُنوزُ اللُّغةِ العربيَّةِ قُطوفها دانيات مِنِّي، وفي يَقيني واعتقادي أَنَّ مَنْ لَمْ يَقرأْ «أَلفيَّةَ ابنِ مالِكٍ» أَو مَنْ لَمْ يَحفَظْ شَيئاً مِنها، فَإِنَّهُ يَبقَى نائِياً بعيداً عَنْ جَنَّاتِ اللُّغةِ العَربيَّةِ، وعَنْ ظِلالِها الوارفاتِ، ولَو حَصلَ عَلى أَعرقِ وأَعلَى الأَلقابِ والدَّرجاتِ العِلميَّةِ.

فَمَنْ هوَ «ابنُ مالكٍ الطَّائيُّ»؟ وأَينَ عاشَ؟

هذا ما سَنَعرفُهُ عَبرَ هذِهِ السُّطورِ والصَّفحاتِ.

❋ ❋ ❋

«ابنُ مالِكٍ الطَّائيُّ» النَّحويُّ المَشهورُ هوَ أَبو عبدِ اللهِ جمالُ الدِّينِ مُحمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ

مُحمَّدٍ بنِ عَبدِ اللهِ بنِ مالِكٍ الطائيُّ الجياني المالِكيُّ، ثُمَّ الشَّافعيُّ الطائيُّ: نسبَةً إِلَى قَبيلَةِ طَيِّ الَّتِي يَنتَهي نَسبُهُ إِليها، فَكما أَجمعَ المُؤرِّخونَ أَنَّ نَسبَهُ يَنتَهي إلى «طَيِّ بنِ أُدَدٍ»، وهوَ: «جُرمُ بنُ كَهلانَ بنِ يَشجبَ بنِ يَعربِ بنِ قَحطانَ» فَهوَ عربيٌّ يَمانيٌّ قَحطانيٌّ.

والجيانيُّ: نسبَةً إِلى مَدينَةِ «جَيَّانَ» في بِلادِ الأَندلُسِ، وهيَ المَدينةُ الَّتِي ولِدَ فيها.

والمالكيُّ: نسبَةً إِلى مَذهبِ الإِمامِ «مالِكِ بنِ أَنسٍ» حيثُ كانَ يُقلِّدُهُ وهوَ في بِلادِ الأَندلسِ، عَلى عادةِ أَهلِ الأَندلُسِ، حيثُ إِنَّ غالبيَّتَهُمْ كانوا يُقلِّدونَ المَذهبَ المالكيَّ، مذهبَ إِمامِ دارِ الهجرةِ، لِانتشارِهِ الواسعِ هُناكَ.

والشَّافعيُّ: نسبَةً إِلى مَذهبِ الإِمامِ الشَّافعيِّ، حيثُ صارَ يُقلِّدُهُ بَعدَ مُغادرَتِهِ الأَندلس، وإِقامَتِهِ في مصرَ وبِلادِ الشَّامِ.

ولِدَ «أَبو عبدِ اللهِ جمالُ الدِّينِ بنُ مالكٍ الطَّائيُّ» في مَدينَةِ «جَيَّانَ» مِنْ بِلادِ الأَندلُسِ، سَنةَ (600) هجريَّةً، ونَشَأَ وتَرعرَعَ فيها، ولَمْ يَذكُرِ المُؤرِّخونَ لَنا شَيئاً عَنْ طُفولَتِهِ ونَشأَتِهِ، ولَمْ يُفَنِّدوا لَنا عَنْ والديهِ شَيئاً، وجُلُّ ما أَشاروا إِليهِ عَنْ حياتِهِ في طُفولَتهِ، أَنَّهُ ولِدَ في مَدينَةِ «جَيَّانَ».

كانَتْ هذه المَدينَةُ مِنْ أَعرقِ مُدنِ الأَندَلُسِ، ومِنْ أكثرِها شُهرَةً، تَقعُ عَلى سَفحِ جبلٍ عَلى مَقرُبَةٍ مِنْ مَدينَةِ «طُليطلَةَ»، وهيَ ـ كما وَصفَها «الحميريُّ» في كتابِهِ «الرَّوضِ المعطارِ» ـ كَثيرةُ الخَصبِ، رَخيصَةُ الأَسعارِ، وبها جناتٌ وعيونٌ وبَساتينُ ومَزارعُ مَشهورَةٌ ويَتبَعُ لَها ثَلاثَةُ آلافِ قَرية اشْتُهرَتْ بَحريرِها.

ويُقالُ: إنَّ الفاتحَ الإسلاميَّ «طارقَ بنَ زيادٍ» قَدْ أَقامَ فيها قَبلَ تَوجُّههِ إلى مَدينةِ «طُليطلَةَ».

وبَعدَ الفَتحِ الإسلاميِّ لِبلادِ الأَندلُسِ، صارَتْ مَدينَةُ «جيَّانَ» مِنْ أَهمِّ مَعاقِلِ الثَّقافَةِ العربيَّةِ الإسلاميَّةِ في الأَندلُسِ، فَبُنيَتْ فيها المَساجدُ ودورُ العلمِ والمَكتباتُ، وأَمَّتها الأُسرُ العربيَّةُ القادمةُ مِنْ بِلادِ الشَّامِ والعراقِ واليَمنِ وغيرِها. وظَهرَ فيها العُلماءُ والأُدباءُ الَّذِيْنَ لا يُحصَى لَهُمْ عَدد. واشتُهرَ مِنْ عُلمائِها: «أَبو عليٍّ الجَيَّاني» الإمامُ الضَّابِطُ، والمُقرىءُ «ثابتُ بنُ خَيارٍ»، والعالمُ «أَبو عليٍّ الشلوبين»، والعالمُ المُحدِّثُ «ابنُ مالكٍ المُرشانيُّ»، والعالمُ الشَّهيرُ «أَبو حيَّانَ الأَندلُسيُّ الجَيَّانيُّ»، والعالمُ الأُستاذُ القاضي «أَبو ذَرٍّ مَصعبُ بنُ مَسعودٍ الخُشنيُّ» المَعروفُ بِـ «أَبي رُكبٍ» وهو القائِلُ لَمَّا سَقَطَتْ بِلادُ الأَندلُسِ في أَيدي الفِرَنجةِ يَتَأَسَّفُ عَلَى ذَهابِ المُلكِ العربيِّ الإسلاميِّ في بِلادِ الأَندلُسِ وعَلَى ضَياعِ مَدينَةِ «جَيَّانَ»:

أَجَيَّان، أَنتِ الماءُ قَدْ حيلَ دونَهُ ... وإِنِّي لَظَمْآنُ إِليكِ وصادي
ذَكَرتُكِ إِنْ هَبَّتْ شِمالاً وإِنْ بَدا ... لِعَيني مِنْ تِلكَ المَعالِمِ بادي
مَتَى ما أَرِدْ سَيراً إِليكِ تَرُدُّني ... مَخافَةُ آسادٍ هُناكَ عَوادي

كما ذَكرَها الإمامُ الرَّنديُّ في قَصيدَتِهِ المَشهورَةِ الَّتِي مَطلَعُها:

لِكُلِّ شَيءٍ إِذا ما تَمَّ نُقصانُ ... فَلا يغرُّ بِطيبِ العيشِ إِنسانُ

وهوَ يَبعثُ العزائِمَ ويُحَرِّكُها لِنَصرَةِ الإسلامِ وتَخليصِ البِلادِ مِنْ أَيدي الفِرنجةِ، قالَ:

فَاسْأَلْ بَلَنْسِيَّةً ما شَأنُ مَرسيَةٍ وأَينَ شاطبَةُ أَمْ أَينَ جَيَّانُ
وأَينَ قُرطبَةُ دارُ العلومِ فَكَمْ مِنْ عالمٍ قَدْ سَما فيهِ لَهُ شانُ

إذاً في مَدينةِ «جَيَّانَ» تَلَقَّى «ابنُ مالكٍ» علمَهُ الأَوَّلَ وعَكَفَ مُنذُ صغَرِهِ عَلى حُضورِ مَجالسِ العُلماءِ، فَحفظَ القُرآنَ الكريمَ، وشَيئاً مِنَ الحديثِ النَّبويِّ الشَّريفِ، وأَخذَ جُلَّ علومِهِ عَنِ العالمِ الثَّبتِ والثِّقةِ الفَهَّامَةِ «ثابتِ بنِ خيَّارٍ الكِلاعيِّ» المُلَّقبِ بِـ «أَبي المُظَفَّرِ» وعُرفَ بِـ «ابنِ الطَّيلَسان» الَّذِي كانَ يقرأُ القُرآنَ والنَّحوَ في «جَيَّانَ»، ونَزلَ في إِشبيليَّةَ وقَرأَ عَلى العالمِ واللُّغويِّ «أَبي عَليٍّ الشَّلوبين» الَّذِي كانَ آيَةً مِنْ آياتِ اللهِ في العربيَّةِ، كَذَلِكَ واظبَ «ابنُ مالكٍ» مُدَّةً على مَجلِسِ العالمِ اللُّغويِّ والأَديبِ «ابنِ مالِكٍ المُرشانيِّ» وقَرأَ عليهِ كتابَ سيبويه.

نَشأَ «ابنُ مالكٍ الطَّائيُّ» في بِلادِ الأَندلُسِ مُتَنَقِّلاً بينَ مُدنِ «جَيَّانَ» و«طُليطيلَةَ» و«إِشبيليَّةَ» و«قُرطُبَةَ» في عَصرِ الفَوضَى والاضطرابِ السِّياسيِّ، والفتنِ والمُؤامراتِ في أَيَّامِ خِلافَةِ المَلكِ النَّاصرِ بنِ يَعقوبَ بنِ يوسفَ بنِ عبدِ المُؤمنِ مِنْ مُلوكِ المُوَحدينَ الَّذِي تَولَّى حكمَ بِلادِ المغربِ والأَندلسِ سَنةَ (595) هجريَّةً. والتَقَى في مَعركَةٍ حاميَةِ الوَطيسِ مَعَ مَلكِ النَّصارَى والفرَنجةِ في بِلادِ الأَندلسِ فَكانتِ الهزيمةُ الكُبرَى للعربِ والمُسلمينَ سنةَ (609) هجريَّةً، وسَقَطَتْ عَلى إِثرِها مَدينَةُ إِشبيليَّةَ في يَدِ الفِرنجَةِ، ثُمَّ تَوالَتِ المُدنُ والحصونُ تَسقطُ الواحدةَ تُلوَ الأُخرى، ومِنْ يَومِها لَمْ تَقُمْ لِلعربِ والمُسلمينَ قائِمةٌ في

بِلادِ الأَندلُسِ؛ فَقَدْ شَهِدَ «ابنُ مالكٍ» هَذِهِ الأَحداثَ الأَليمةَ الَّتِي عانَى فيها النَّاسُ ما عَانَوا مِنَ العَدوِّ الغاشِمِ والحاقِدِ.

❋ ❋ ❋

ولَمَّا وَجدَ أَنَّ الحياةَ لَمْ تَعُدْ مُستَقرَّةً في البِلادِ عَزمَ عَلى الرَّحيلِ عَنها، وخاصَّةً بَعدَ موتِ والديهِ كما أَشارَ إِلى ذَلكَ بَعضُ المُؤرخينَ.

في سَنةِ (625) هجريَّةً خَرجَ «ابنُ مالكٍ» مودِّعاً بِلادَهُ ومَسقَطَ رأْسِهِ الَّتِي لَمْ يَعدْ هُناكَ ما يَربُطُهُ فيها سِوَى ذكرياته وآلامه وأَحزانه، خَرجَ وهوَ يَذرفُ دُموعَ الأَسَى والحسرَةِ عَلى مَملكَةِ العربِ والإِسلامِ في بِلادِ الأَندلُسِ وهيَ تَتمَزَّقُ تَحتَ سَنابِكِ خيولِ الفِرنجَةِ رُويداً رُوَيداً.

تَوَجَّهَ في بِدايَةِ تَرحالِهِ إِلى الدِّيارِ المُقدَّسةِ لأَداءِ فَريضَةِ الحَجِّ، وزيارَةِ قَبرِ نَبيِّهِ الكَريمِ ﷺ، حَتَّى إِذا ما أَدَّاها، يَمَّمَ وَجهَهُ شَطرَ بِلادِ مِصرَ لِإِكمالِ تَحصيلِهِ العلميِّ، والاستِفادةِ مِنْ عُلمائِها، وأَقامَ فيها في أَواخرِ أَيَّامِ المَلكِ الظَّاهرِ بيبرس وبِدايَةِ العهدِ الأَيوبيِّ، ولَكِنَّهُ لَمْ يُطبْ لَهُ المُقامُ في مِصرَ بِسَببِ الحياةِ المُضطربَةِ والفتنِ بينَ حُكَّامِها في ذَلكَ الوَقتِ، فَتَوجَّهَ إِلَى بِلادِ الشَّامِ وزارَ عدَّةَ مُدنٍ فيها كدمشقَ وحلبَ وحماةَ وبعلبَك، وتَصَدَّرَ فيها بِتدريسِ القِراءاتِ وعُلومِ اللُّغةِ والنَّحوِ والحديثِ.

في بدايَةِ وصولِهِ إِلى دِمشقَ شَرعَ في تَحصيلِ الحديثِ، فَقرأَ عَلى عالِمِها ومُحدِّثِها

«أَبي صادقٍ الحسنِ بنِ الصَّباحِ»، وكذَلِكَ قَرأَ عَلى «أَبي الحسَنِ السَّخاويِّ» الَّذِي كانَ إِمامَ عصرِهِ في علومِ التَّفسيرِ واللُّغةِ والنَّحوِ.

زارَ «ابنُ مالكٍ» حلبَ وأَقامَ فيها فَترَةً، وجالَسَ أَكابِرَ عُلمائِها كَابنِ يَعيشَ وابنِ عَمرون، وجلَسَ فيها لتَدريسِ اللُّغةِ والنَّحوِ، وأَلَّفَ فيها في علمِ القِراءاتِ «الداليَّةَ»، وأَمَّ النَّاسَ فيها لِلصلاةِ في السُّلطانيَّةِ.

ثُمَّ طابَتْ له الإِقامةُ في دمشقَ، وأَمَّ النَّاسَ فيها في العادليَّةِ، فَكانَ إِذا صَلَّى يُشَيِّعُهُ[1] قاضي القُضاةِ والمؤرِّخُ المَعروفُ «ابنُ خَلكانَ» إِلى بيتِهِ تَعظيماً لَهُ.

وفي دِمشقَ تَعرَّفَ عَلى بَعضِ عُلماءِ اللُّغةِ المَشهورينَ في عَصرِهِ، وناقَشَهُمْ وناظَرَهُمْ في بَعضِ مَسائِلِ اللُّغةِ، وصَوَّبَ لَهُمْ بَعضَ أَخطائِهِمْ، واستَدرَكَ ما فاتَهُمْ مِنْ شَرحٍ وبيانٍ لِقواعدِ اللُّغةِ ومَسائِلِها.

فَقَدْ تَعرَّفَ عَلى العالمِ اللُّغويِّ الحاذقِ «ابنِ الحاجبِ» الَّذِي كانَ حجَّةً لأَهلِ زَمانِهِ في اللُّغةِ والنَّحوِ والتَّصريفِ، وكانَ «ابنُ الحاجبِ» نَظَمَ «الكافيَّةَ» المُسَمَّاةَ «كافيَّةَ ذَوي الأَربِ» الَّتِي يَشرحُ فيها قواعدَ اللُّغةِ العربيَّةِ والنَّحوِ، واشْتُهِرَتْ بينَ النَّاسِ وعَمَّ صيتُها الآفاقَ حينَها، وهيَ خَمسَةُ كُتُبٍ: واحدٌ في النَّحوِ، وآخرُ في التَّصريفِ، وآخرُ في تَمرينِ التَّصريفِ، والآخرُ في العروضِ والمَعاني والبيانِ.

فَعمدَ «ابنُ مالِكٍ» إِلَى وَضعِ كافِيَّتِهِ الشَّهيرَةِ الَّتِي أَحصَى فيها ما فاتَ «ابنَ الحاجبِ»

---

(1) يشيعه: يصحبه.

مِنْ قَواعدِ اللُّغةِ ومَسائِلِها، وأَسماها «الكافيَّةَ الشَّافيَةَ»، وقالَ عَنْ كافيةِ «ابنِ الحاجبِ»: هَذِهِ كافيَةٌ وليسَتْ شافيَةٌ.

كَما كانَ العُلماءُ والطُّلَّابُ يَتدارسونَ كتابَ سيبويه، وكتابَ المُفصَّلِ لِلزَّمَخشَريِّ، وغيرِهِما مِنَ الكُتبِ والمُصَنَّفاتِ الأُخرَى، ولَمَّا وجَدَ «ابنُ مالِكٍ» أَنَّ هذِهِ المُصَنَّفاتِ غيرُ وافِيَةٍ أَو كافيَةٍ لِلإِحاطَةِ إِحاطَةً تامَّةً بَقواعدِ النَّحوِ والتَّصريفِ شَرعَ في وَضعِ وتَأليفِ المُصَنَّفاتِ الَّتِي تُغني الدَّارسينَ في عُلومِ اللُّغةِ والنَّحوِ، كانَ أَشهرُها كتابُ «التَّسهيلِ» و«الأَلفيَّةِ».

كَما تَعرَّفَ في دِمشقَ عَلَى الفَقيهِ الكبيرِ «مَجدِ الدِّينِ ابنِ تَيميَّةَ»، وأُعجبَ بِعلمِهِ كثيراً، وقالَ عَنهُ:

«أُلينَ لِلشَّيخِ مَجدِ الدِّينِ ابنِ تَيميَّةَ الفقهُ كما أُلينَ لِداوُدَ الحديدُ».

قَلدَّ «ابنُ مالكٍ» في دمشقَ مَذهبَ الإِمامِ الشَّافعيِّ، وبَرعَ فيهِ، وكانَ مِنْ كبارِ تلامذَتِهِ الَّذِيْنَ أَخذوا عَنهُ عُلومَ اللُّغةِ والحديثِ الفَقيهُ والمُحدِّثُ الشَّافعيُّ المَذهبِ «الإِمامُ النَّوَويُّ» الَّذِي يُعتبرُ مِنْ كبارِ أَعلامِ الشَّافعيَّةِ.

تَزوَّجَ في دِمشقَ، وصاهرَ إِحدَى الأُسرِ العَريقَةِ فيها، ورَزقَهُ اللهُ البسطَةَ في العيشِ الرَّغيدِ، والكثرَةَ في المالِ والوَلدِ، فَكانَ شاكراً لِنعمةِ رَبِّهِ، حامداً إِياهُ على عَطائِهِ، وكانَ لَهُ مِنَ الأَولادِ خَمسَةٌ، وكُلُّهُمْ أَصبَحوا مِنْ عُلماءِ الأُمَّةِ المَشهورينَ في علومِ اللُّغةِ والحديثِ والتَّفسيرِ. كانَ أَكبرُهُمْ بَدرَ الدِّينِ الَّذِي كانَ حجَّةً ونابِغَةً في العلمِ؛ بَرعَ في النَّحوِ والحديثِ والتَّفسيرِ، ولَهُ عِدَّةُ تَصانيفَ في المَنطقِ واللُّغةِ أَشهرُها شَرحُ أَلفيَّةِ أَبيهِ.

ماتَ سَنةَ (686) هجريَّةً ودُفنَ بِمقبرَةِ بابِ الصَّغيرِ في دمشقَ، ثُمَّ تَقيَّ الدِّينِ المُلَقَّبَ بِالأَسدِ، ويُقالُ: إِنَّ والدَهُ وَضعَ الأَلفيَّةَ لَهُ وبِناءً على طَلبِهِ، وذَكرَهُ الإِمامُ شَمسُ الدِّينِ الذَّهبيُّ وقالَ: إِنَّ والدَهُ وَضعَ المُقدِّمةَ الأَسَديَّةَ في النَّحوِ والتَّصريفِ بِاسمِهِ، ثُمَّ الشَّيخَ شَمسَ الدِّينِ الَّذِي قالَ عنهُ «الصَّفديُّ» في كتابِهِ «أَعيانِ العصرِ»: كانَ شَيخاً حَسناً بَهيَّ المَنظرِ، مُنوَّرَ الشيبَةِ، لازمَ الجامعَ الأُمويَّ أَكثرَ مِنْ أَربعينَ سَنة، ولَهُ بيتٌ وخَزانةٌ في المئذِنةِ الشَّرقيَّةِ.

يَقولُ الصَّفديُّ عَنهُ: لَقيتُهُ غيرَ مرَّةٍ في الجامعِ، يَسأَلُ الطَلبَةَ، فإِذا قالَ لَهُ أَحدُهُمْ: قَرأَتُ أَلفيَّةَ ابنِ مالكٍ، كانَ يَقولُ: أَلفيَّةُ والدي، ويَفرحُ.

ثُمَّ الشيخَ جمالَ الدِّينِ الَّذِي كانَ أَصغرَ إِخوَتِهِ، انتقَلَ إِلى القاهرةِ وعاشَ فيها، وكانَ حسَنَ الأَخلاقِ ولَهُ نَظمٌ في علمِ الحديثِ لَمْ يَصلْ إِلينا، وأَشارَ إِليهِ «الصَّفديُّ». تُوفيَ في القاهرةِ سَنةَ (732) هجريَّةً ودُفنَ هُناكَ.

❋ ❋ ❋

صرفَ «ابنُ مالكٍ» همَّهُ إِلى إِتقانِ لِسانِ العربِ حَتَّى بَلغَ فيهِ الغايَةَ، وأَربَى عَلى المُتقدِّمينَ، وكانَ إِماماً بِالقِراءاتِ وعِلَلِها، صَنَّفَ فيها داليَةً مَرموزةً عَلى قَدرِ «الشَّاطبيَّةِ»[1].

وأَمَّا اللُّغةُ فَكانَ إِليهِ المُنتَهى، وأَمَّا النَّحوُ والتَّصريفُ فَكانَ فيهما بَحراً لا يُشَقُّ لُجُّهُ،

(1) منظومة الإمام الشاطبي.

وكانَ لَهُ في اللُّغةِ أَمراً عَجيباً! وكانَ الأَئمَّةُ الأَعلامُ ـ كما ذكرَ عنهُ الصَّفديُّ ـ يَتحيَّرونَ في أَمرِهِ. وأَمَّا الاطِّلاعُ عَلى الحديثِ فَكانَ فيهِ آيَةً؛ لأَنَّهُ أَكثرُ ما يَستَشهدُ بِالقُرآنِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فيهِ عَدلَ إِلى الحديثِ، وإِنْ لَمْ يَكُنْ فيهِ شَيءٌ اتَّجهَ إِلى أَشعارِ العربِ، هذا معَ ما هُوَ عليهِ مِنَ الدِّينِ والعبادةِ وصدقِ اللَّهجةِ، وكثرةِ النَّوافلِ، وحُسنِ السَّمتِ، وكمالِ العقلِ.

وكما ذَكَرَ عَنهُ المُؤرِّخونَ: إِنَّهُ انفرَدَ عَنِ المغاربَةِ بِشَيئينِ: الكرمِ ومَذهبِ الشَّافعيِّ؛ لأَنَّ المغاربَةَ مَشهورونَ بِبُخلِهِمْ وتَقليدِهِمْ لِمذهبِ الإِمامِ مالكٍ، وهاتانِ صِفتانِ ما تَزالانِ تُلازمانِ المَغاربَةَ إِلى يَومِنا هذا.

وَصَفَهُ «المقريُّ التلمسانيُّ» في «نَفحِ الطِّيبِ» فَقالَ: كانَ رَحِمَهُ اللهُ كثيرَ المُطالعةِ، سَريعَ المُراجعةِ، لا يَكتبُ شَيئاً مِنْ مَحفوظِهِ حَتَّى يُراجعَهُ في مَحلِّهِ، ولا يُرَى إِلَّا وهوَ يُصَلِّي أَو يَتلو أو يُصَنِّفُ أَو يَقرأُ. وحُكيَ عنهُ أَنَّهُ تَوجَّهَ يوماً لِلفُرجةِ بِدمشقَ فَلمَّا بَلغوا الموضعَ الَّذِي أَرادوهُ غَفلوا عَنهُ، فَطلبوهُ فَلمْ يَجدوهُ، ثُمَّ فَحصُوا عَنهُ فَوجدوهُ مُكِباً على أَوراقِهِ.

وقَدْ بَلغَ مِنْ شِدَّةِ حرصِهِ عَلى العلمِ والحفظِ، أَنَّهُ عندَ وفاتِهِ حفظَ ثَمانيَةَ أَبياتٍ مِنَ الشِّعرِ لَقَّنَهُ إِيَّاها ابنُهُ بَدرُ الدِّينِ، حَفظهَا ورَدَّدها ثُمَّ ماتَ بَعدَها بِلحظاتٍ، فكانَتْ وفاتُهُ سَنةَ (672) هجريَّةً، ودُفنَ في دمشقَ وصُلِّي عليهِ في الجامعِ الأُمويِّ وشَيَّعَهُ جَمعٌ غَفيرٌ مِنْ عُلماءِ عَصرِهِ إِلى مَثواهُ الأَخيرِ في مَقبرَةٍ عَلى سَفحِ جبلِ قاسيونَ.

ويَكفي «ابنَ مالكٍ» في العلمِ فَخراً وتَألُّقاً، أَنَّهُ تَخرَّجَ عَلى يَديهِ، وحَفظَ عنهُ جَمعٌ غَفيرٌ مِنْ العُلماءِ وأَعلامِ الأُمَّةِ المَشهورينَ، مِنهُم: شمسُ الدِّينِ بنُ جَعوان، وشَمسُ الدِّينِ بنُ

أَبي الفتحِ، وبانُ العطَّار، وأَبو بَكرٍ المزيُّ، وأَبو الحسينِ اليونيني، وأَبو عبد اللهِ الصَّيرفيُّ، وقاضي القُضاةِ بَدرُ الدِّينِ بنُ جماعةَ، وشهابُ الدِّينِ مَحمود، وشهابُ الدِّينِ بنُ غانم، وناصرُ الدِّينِ بنُ شافعٍ، والإمامُ أَبو بَكرٍ النَّوويُّ، والإمامُ شَمسُ الدِّينِ الذَّهبيُّ، وغيرُهُمْ خَلقٌ كَثيرٌ.

نَعاهُ أَحدُهُمْ عندَ موتِهِ فقالَ:

قُلْ لابنِ مالكٍ إِنْ جرَتْ بِكَ أَدمُعي ... حُمراً يُحاكيها النَّجيعُ القَاني

فَلقَدْ جَرحتَ القلبَ حينَ نَعيتَ لي ... وتَدفَّقَتْ بِدمائِهِ أَجفاني

لَكنْ يُهوّنُ ما أَجنَّ مِنَ الأَسَى ... عِلمي بِنَقلَتِهِ إِلى رضوانِ

فَسقَى ضَريحاً ضَمَّهُ صَوبَ الحيا ... يَهمي بِهِ بِالرَّوحِ والرَّيحانِ

❋ ❋ ❋

وَضَعَ «ابنُ مالكٍ» مِنَ التَّصانيفِ ما سارَتْ بِها الرُّكبانُ، في جميعِ الأَوطانِ، واعترفَ بِحُسنِها الحاضِرُ والبادي، والدَّاني والقاصي، والصَّديقُ والعَدوُّ؛ كُلٌّ تَلقَّاها بِالقَبولِ والإِذعانِ، فإِنَّهُ أَحيا فيها مِنَ العلمِ رُسوماً دارسَةً، وبَيَّنَ معالِمَ طامسةً، وجَمعَ مِنْ ذَلِكَ ما تَفرَّقَ، وحَقَّقَ ما لَمْ يَكُنْ تَبيَّنَ مِنهُ ولا تَحقَّق.

وقَدْ أَحصَى لَهُ المُؤرِّخونَ المُؤلفاتِ والمُصنَّفاتِ التَّاليَةَ:

1 ـ الكافيَةُ الشَّافيَةُ: مَنظومةٌ في ما يُقاربُ الثَّلاثَةَ آلافِ بيتٍ مِنْ مُزدوَجِ الرَّجزِ تَضُمُّ النَّحوَ والصَّرفَ معاً.

2 ـ الوافيَةُ في شَرحِ الكافيَةِ الشَّافيَةِ: وهيَ شَرحٌ لِلكافيَةِ نَثراً وعليهِ تَعليقاتٌ، وشَرحها أَيضاً ولدُهُ بَدرُ الدِّينِ.

3 ـ الخُلاصَةُ (الأَلفيَّةُ): مَنظومَةٌ في نَحوِ أَلفِ بيتٍ أَودعَ فيها خُلاصَةَ ما في الكافيَةِ الشَّافيَةِ مِنْ نَحوٍ وصَرفٍ، وقَدْ شَرحَها كَثيرونَ، وأَشهرُ شَرحٍ قُدِّمَ فيها هوَ شَرحُ العلَّامةِ «ابنِ عَقيلٍ الهَمذانيِّ» المُتَوفى سَنةَ (769) هجريَّةً، وقَدْ حَقَّقَ هذا الشَّرحَ في عصرِنا هذا العلَّامَةُ محيي الدِّينِ عَبدُ الحميدِ.

4 ـ التَّسهيلُ (تَسهيلُ الفَوائِدِ وتكميلُ المَقاصِدِ): تَناولَ فيهِ مَسائِلَ النَّحوِ والتَّصريفِ في ثَمانينَ باباً تَتَضمَّنُ مئتين وأَحدَ عشرَ فَصلاً.

5 ـ المُؤَصِّلُ في نَظمِ المُفصَّلِ: وهوَ نَظمٌ لِمُفَصَّلِ الزَّمخشريِّ.

6 ـ سَبكُ المَنظومِ وفَكُّ المَختومِ: وهيَ رِسالَةٌ موجزةٌ في النَّحوِ.

7 ـ عمدةُ الحافظِ وعدَّةُ اللَّافظِ: وهوَ مُختصَرٌ يَضمُّ أُصولَ النَّحوِ.

8 ـ شَواهدُ التَّوضيحِ والتَّصحيحِ لِمُشكلاتِ الجَامعِ الصَّحيحِ، أَو إِعرابُ مُشكَلِ البُخاريِّ.

9 ـ المُقدِّمةُ الأَسديَّةُ: رِسالةٌ صَغيرَةٌ في النَّحوِ وَضعَها في الأَصلِ لابنِهِ تَقيِّ الدِّينِ المُلقَّبِ بِالأَسدِ.

10 ـ شَرحُ الجزولية: والجزوليَّةُ مُقدِّمةٌ في النَّحوِ مَشهورةٌ بِاسمِ مُؤلِفِها أَبي موسَى الجزوليِّ.

11 ـ نَكتةُ النَّحويَّةِ عَلى مُقدِّمةِ ابنِ الحاجبِ.

وفي الماضي لاقَتْ مؤلفاتُ ومُصَنَّفاتُ «ابنِ مالكٍ» رواجاً بينَ العُلماءِ والمُحدِّثينَ لِما وَجدوا فيها مِنَ الفائِدةِ والسُّهولَةِ واليُسرِ في التَّعلمِ والحفظِ، حَتَّى إنَّ العَلَّامةَ شَمسَ الدِّينِ الذَّهبيَّ جَسرَ النَّاسَ عَلى مُصنَّفاتِ «ابنِ مالكٍ»، ورَغَّبَهُمْ في قِراءَتِها، فَكانَ لا يُقرئُ النَّاسَ النَّحوَ إلا في كتابِ سيبويه، وفي كتابِ التَّسهيلِ لابنِ مالكٍ.

الأَسْئِلَةُ وَالْمُنَاقَشَةُ

1 ـ لِماذا قيلَ عَن ابنِ مالكٍ أَنَّهُ لَمْ يَدَعْ لِعلمِ النَّحوِ حُرمةً؟

2 ـ إِلى مَنْ يَنتهي نسبُ ابنِ مالكٍ، وأينَ ولدَ وترعرعَ؟

3 ـ كيفَ كانتْ مدينةُ جَيَّانَ؟

4 ـ مَنْ هُمْ أَهمُّ العلماءِ الذينَ تَلقَّى العلمَ عنهُمُ ابنُ مالكٍ؟

5 ـ ما هيَ الأَسبابُ الَّتِي دفَعتْ ابنَ مالكٍ لمُغادرةِ الأَندلس؟

6 ـ مَنْ هُمُ العُلماءُ الَّذينَ تعرَّفَ عليهِمُ ابنُ مالكٍ في دمشقَ؟

7 ـ ما هيَ أَهمُّ صفاتِ ابنِ مالكٍ؟

8 ـ اذكُرْ أَهمَّ ثلاثَةِ مُصنَّفاتٍ لابنِ مالكٍ؟

ابن هشام الأَنصاريُّ حجَّةُ العَربِ

(708 ـ 761هـ)

ابنُ هشامٍ الأَنصاريُّ، حجَّةُ العربِ، وأَنْحَى مِنْ سيبويه، كما قالَ عَنهُ فيلسوفُ التَّاريخِ ومُؤسِّسُ علمِ الاجتماعِ (ابنُ خَلدونَ): واحدٌ مِنْ عُلماءِ العربِ والإِسلامِ الَّذِيْن أَسهموا إِسهاماً كبيراً في ارتقاءِ وازدهارِ علمِ النَّحوِ، وعلومِ العربيَّةِ عامَّةً، وكانَتْ لَهُ الإِمامَةُ في النَّحوِ في عَصرِهِ، والمحجَّةُ البيضاءُ في عُلومِ اللُّغةِ، يَقصدُهُ العُلماءُ والطُّلَّابُ مِنْ كُلِّ حَدبٍ وصَوبٍ، يَنهلونَ مِنْ مَعينِ عِلمِهِ ومَعارِفِهِ، ويَغرفونَ مِمَّا يَجودُ عليهِمْ مِنْ ثَقافتِهِ الواسعَةِ غِذاءً لِعقولِهِمْ ومعارِفِهِمْ.

ابنُ هشامٍ الأَنصاريُّ، العالمُ المَوسوعيُّ، والحجَّةُ الثَّبتُ، ذكرُهُ في كُتبِ المُؤرِّخينَ وافرٌ، وفَضلُهُ عَلى علمِ النَّحوِ، وعُلماءِ العربيَّةِ في عصرِهِ وما تَلاهُ إِلى يَومنا هذا قائِمٌ، لا تَحجبُهُ غُيومٌ، ولا تَخسفُهُ شَمسٌ، فَهوَ مَعروفُ الهِمَّةِ، مَشهورُ العَطاءِ، غَزيرُ الإِنتاج العلميِّ في اللُّغةِ والنَّحوِ، وما تَزالُ الأَجيالُ تَعترفُ لَهُ بِالفَضلِ والعرفانِ عَلى ما قَدَّمَهُ مِنْ جُهودٍ، في سبيلِ ارتقاءِ مَعارِفِ وعُلومِ اللُّغةِ العربيَّةِ مِنْ نَحوٍ وصَرفٍ، ومَعانٍ وضروبِ الشِّعرِ، وغيرِها مِنْ مَباحثِ اللُّغةِ العربيَّةِ.

وغَنيٌّ عَنِ القَولِ أَنَّ «ابنَ هشامٍ الأَنصاريَّ» قَدْ جَمعَ بينَ آراءِ مدارسِ اللُّغةِ والنَّحوِ الَّتي اشتُهرَتْ في عَصرِهِ، وفي العُصورِ الَّتي سَبَقَتْهُ، عَلى شَكلٍ يُعربُ عَنْ غزارةِ علمِهِ، وسِعةِ ثَقافَتِهِ، وقُوَّةِ مَلكَتِهِ الفكريَّةِ والعَقليَّةِ، وتَملُّكِهِ لِناصيَةِ اللُّغةِ بِشَتَّى عُلومِها وفُنونِها، فَقَدْ كانَتْ لَهُ استنباطَاتُهُ الرَّائِعةُ، ومَباحِثُهُ النَّحويَّةُ الدَّقيقَةُ ومَنهَجُهُ الخاصُّ في مُناقشَةِ الخَواطرِ والآراءِ في كُلِّ ما يُعرضُ لَهُ مِنْ مَعارفِ الأَوَّلينَ والسَّابقينَ، ويُناقشُ كُلَّ ذَلكَ بروحٍ علميَّةٍ تَتوَخَّى إفادةَ الآخرينَ، وتَبسيطَ قَواعدِ اللُّغةِ ومناهجِ النُّحاةِ في قَواعدِ النَّحوِ والإعرابِ، والتَّصريفِ عَلى وَجهٍ يَزولُ معهُ أَيُّ التباسٍ أَو غُموضٍ يَعترضُ عقلَ الطالبِ السَّاعي نَحوَ اقتِناصِ المَعرفَةِ، واكتسابِ العلمِ والتَّفقُّهِ باللُّغةِ والنَّحوِ وقَواعدِهِ. فَكانَ يَتمتَّعُ بِقدرةٍ فائِقةٍ عَلى التَّوجيهِ والتَّعليلِ والتَّخريجِ وهوَ يُراجعُ أَو يُناقشُ مَسأَلَةً أَو رَأْياً ما في قَواعدِ اللُّغةِ أَو النَّحوِ أَو الصَّرفِ، ويَظهرُ لَنا هذا واضِحاً مِنْ خِلالِ مُطالَعتِنا لِمؤلفاتِهِ ومُصنَّفاتِهِ الَّتي وَضعَها لِهذِهِ الغايَةِ.

وإِضافَةً إِلَى ضُلوعِهِ وتَبحُّرِهِ في علمِ النَّحوِ، كانَ شاعراً حاذِقاً عالماً خبيراً بِضروبِ الشِّعرِ، وبِطرقِ نَظمِهِ وإِنشادِهِ، ومِنْ شعرِهِ الَّذِي يَظهرُ فيهِ الحرصُ على العلمِ وتَحصيلُهُ قولُهُ:

ومَنْ يَصطَبِرْ لِلعلمِ يَظفرْ بِهِ ومَنْ يَخطُبِ الحَسناءَ يَصبرْ على البَذلِ
ومَنْ لا يَذلُّ النَّفسَ في طلبِ العُلا يسيراً يَعِشْ دهراً طويلاً أَخا ذُلِّ

فَمَنْ هوَ ابنُ هشامٍ الأَنصاريُّ، وأَينَ عاشَ، وإِلَى مَنْ يُنسبُ، وما هيَ أَهمُّ معالمِ حياتِهِ؟

هذا ما سَنعرفُهُ في هَذِهِ الصَّفحاتِ.

❋ ❋ ❋

يَرجعُ نَسبُ «ابنِ هشام» إلى الأَنصارِ، وهُمْ سُكَّانُ المدينةِ المُنوَّرةِ الَّذِيْن آووا النَّبيَّ الكريمَ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وصحبَهُ الكِرامَ مِنْ أَهلِ مكَّةَ لَمَّا هاجرَ إِليهِمْ وعَزَّزوهُ ونَصروهُ واتَّبعوا النُّورَ الَّذِي أُنزلَ معهُ، ولِذَلكَ سماهُمْ مِنْ أَجلِ ذَلكَ أَنصاراً. وقالَ بَعضُهُمْ: إِنَّ نَسبَهُ يَرجعُ إِلى قبيلَةِ الخزرجِ، وقالَ البَعضُ الآخرُ: إِنَّ نَسبَهُ يَرجعُ إِلى قَبيلَةِ الأَوسِ، وهوَ الأَصَحُّ.

والأَنصارُ مِنْ أَوسٍ وخزرجٍ، يَنتمونَ إِلى قَبائِلِ الأَزدِ بنِ الغَوثِ بنِ ثَبتٍ بنِ مالكٍ بنِ زيدٍ بنِ كَهلانَ بنِ سَبأٍ أَخي جرهمَ وحَضرموتَ أَبناءِ قَحطانَ.

واسمُ «ابنِ هشامٍ» الحَقيقيُّ هو: «أَبو مُحمَّدٍ عبدُ اللهِ بنُ يوسفَ بنِ أَحمدَ بنِ هشامٍ، جمالَ الدِّينِ الأَنصاريُّ المِصريُّ». وأُطلِقَ عليهِ لَقبُ «ابنِ هشامٍ» جدِّهِ الأَدنَى، كما هوَ واضحٌ في نَسبِهِ.

ومِنَ المَعروفِ أَنَّ هناكَ عِدَّةَ عُلماءَ مِنْ عُلماءِ العربِ والإِسلامِ عُرفوا قَديماً بِهذه الكُنيَةِ، ومِنهُم: «عبدُ الملكِ بنُ هشامِ بنِ أَيوبَ المَعافريُّ» المُتوفى سَنةَ (213) هجريَّةً، وهوَ الَّذِي هذَّبَ السيرَةَ النَّبويَّةَ لابنِ إِسحاقَ، وهيَ الَّتِي تُسمَّى بسيرَةِ ابنِ هشامٍ، ومِنهُم: «أَحمدُ بنُ عبدِ اللهِ بنُ هُشامٍ اللُّخميُّ السبتيُّ النَّحويُّ» أَحدُ أَعيانِ القرنِ السَّادسِ، و«مُحمَّدُ بنُ يَحيَى بنُ هشامٍ الخضراويُّ» المَعروفُ بِابنِ البُرذعيِّ، وكانَ إِماماً في اللُّغةِ

العربيَّةِ وتوفيَ بِتونسَ سَنةَ (646) هجريَّةً، كما اشتُهرَ بِهذِهِ الكنيَةِ عَدَدٌ مِنْ أَحفادِ ابنِ هشامٍ الأَنصاريِّ كانوا مِنَ الأَعيانِ والعُلماءِ، كَحفيدِهِ «مُحمَّدُ بنُ عبدِ الرَّحمنِ بنِ هشامٍ» المُتوفى سنةَ (886) هجريَّةً، وابنُهُ «مُحبُّ الدينِ مُحمَّدُ بنُ مُحمَّدِ بنِ عبدِ الرَّحمنِ» وتوفيَ سَنةَ (907) هجريَّةً.

ولِدَ «ابنُ هشامٍ الأَنصاريُّ» في مَدينةِ القاهرةِ سَنةَ (708) هجريَّةً بِإجماعِ المُؤرِّخينَ، في بيتِ علمٍ وتَقوَى، ونشأَ عَلى حُبِّ العلمِ والتَّفَقُّهِ بِالدِّينِ، وعَلى حفظِ القُرآنِ الكريمِ وحَديثِ النَّبيِّ المُختارِ ﷺ، وطافَ عَلى عُلماءِ مصرَ وفُقهائِها ومُحدِّثيها، وأَولى مِنِ اهتمامِهِ عنايَةً خاصَّةً في التَّفَقُّهِ بِالنَّحوِ وعُلومِ اللُّغةِ عَلى يَدِ كبارِ النُّحاةِ في عَصرِهِ، فَنَضجَتْ عُلومُهُ ومَعارفُهُ في وَقتٍ مُبكرٍ مِنْ حياتِهِ، فَعُرفَ بينَ عُلماءِ اللُّغةِ وفُقهاءِ النَّحوِ في مصرَ وهوَ لَمْ يَتجاوزِ العشرينَ مِنْ عُمرِهِ.

وكانَ مِنَ العُلماءِ الَّذِيْن تَلَقَّى عَنهُمُ العلمَ والمعرفَةَ «الشِّهابُ عبدُ اللَّطيفِ بنُ المُرحلِ»[1]، وكانَ إماماً في النَّحوِ ومِنْ كبارِ عُلماءِ القاهرةِ حينَها، وكانَ ابنُ هِشامٍ يَخصُّهُ بِالتَّقديرِ والاحترامِ مِنْ بينِ جميعِ العُلماءِ الَّذِيْن أَخذَ عَنهُمْ، ورَثاهُ عندَ موتِهِ بِقَصيدةٍ عَلى قافيَةِ الباءِ المُوحَّدةِ، قالَ فيها:

---

(1) هو شهاب الدين عبد اللطيف بن عبد العزيز الحراني الأصل، كان أبوه يبيع الرحال للجمال ولذلك سمي ابن المرحل، وكان يتردد بين القاهرة وحلب، وكانت حلقته في الجامع الحاكمي بالقاهرة. توفي في القاهرة ودفن فيها سنة 744هـ.

سَما الفُضلاءَ وانقضَى بُعدُ شهابِ فَقلْ في مُصيبٍ عَزَّ فيهِ مُصابُ
فَمَنْ يا شهابَ الدِّينِ بَعدَكَ يُستضاءُ لَهُ لمعٌ يُقرأُ عليهِ كتابُ

ومِنهُم «أَثيرُ الدِّينِ أَبو حيانَ الأَندلسيُّ»[1] الَّذِي كانَ إِمامَ زمانِهِ في علمِ النَّحوِ والفِقهِ، عارفاً بِالقراءاتِ والحديثِ، وشاعراً مُجيداً صادق اللَّهجةِ، فَأَخذَ عَنهُ «ابنُ هشامٍ» النَّحوَ والفقهَ والحديثَ.

ومنهُم «تاجُ الدِّينِ الفاكهانيُّ»[2] الَّذِي كانَ عالماً ثَبتاً ورعاً، وكانَ فَقيهاً ونَحوياً وعالماً بِالقراءاتِ، لازمَهُ وسَمعَ منهُ، ومِنهُمْ أَيضاً العلَّامةُ قاضي القضاة «ابنُ جَماعةَ»[3] وكانَ فَقيهاً مُحدِّثاً وخَطيباً بارعاً فَلازمَهُ فترةً، ورَوَى عَنهُ الشَّاطبيَّةَ، كما سَمعَ إِلى العلَّامةَ الشَّهيرِ «تاجِ الدِّينِ التَّبريزي»[4] عندما وفدَ إِلى مصرَ، وقَرأَ عليهِ في الفقهِ والحديثِ والمنطقِ.

إِذاً حَصَّلَ «ابنُ هشامٍ» علومَهُ ومعارفَهُ مِنْ كوكبَةٍ مِنَ العُلماءِ المَشهورينَ في عَصرِهِ،

(1) هو محمد بن يوسف بن حيان الغرناطي، كان في الأندلس ثم انتقل إلى مصر وأقام في القاهرة وفيها توفي سنة 745هـ، وكان ظاهري المذهب، ولما نزل مصر تحول إلى المذهب الشافعي.

(2) هو عمر بن علي بن سالم بن صدقة اللخمي الإسكندري، كان في مدينة الإسكندرية ثم انتقل إلى القاهرة وأقام فيها سنواتٍ عديدةً ثم عاد إلى الإسكندرية وفيها توفي سنة 731هـ.

(3) هو عز الدين ابن جماعة الكناني الحموي ثم المصري الشافعي ابن قاضي القضاة بدر الدين ابن جماعة، كان فقيهاً محدثاً ومدرساً في الديار المصرية وخطيباً بارعاً ومفتياً، توفي سنة 767هـ في القاهرة.

(4) هو علي بن عبد الله التبريزي، العلامة أوحد زمانه، كان ضليعاً في عدة علوم، كان في بغداد ثم نزل القاهرة ومات فيها سنة 746هـ.

وتَأَذَّنَ لَهُ القَدرُ أَنْ يَفوقَ شيوخَهُ في اللُّغةِ والنَّحوِ وهُمْ ما يَزالونَ يُعاصرونَهُ، وأَثبَتوا لَهُ تقدُّمَهُ عليهِمْ في ذَلكَ، ورَجعوا إِليهِ في كثيرٍ مِنَ المَسائِلِ النَّحويَةِ الَّتِي أَشكلَ عَليهِمْ مَعرفَتُها أَو حَلُّها.

❋ ❋ ❋

استطاعَ «ابنُ هشامٍ» بِجَدِّهِ ومُثابَرتِهِ عَلى نَشرِ علمِ العربيَّةِ بينَ النَّاسِ أَنْ يُلفتَ الأَنظارَ إِليهِ، وأَنْ يَجعلَ لِصيتِهِ العلميِّ في علمِ النَّحوِ انتشاراً واسِعاً في كافَّةِ أَنحاءِ البِلادِ، فَوصلَ صيتُهُ العلميُّ إِلى بِلادِ المغربِ والأَندلُسِ، وإِلى بِلادِ الشَّامِ والعراقِ، فَأَكبَّ النَّاسُ عَلى مُصنَّفاتِهِ، وتَوافَدَ إِليهِ الطُّلَّابُ مِنْ كُلِّ حَدبٍ وصَوبٍ، وعَمَّتْ شهرتُهُ بينَ العُلماءِ فَأَقبلوا إِليهِ يَستفتونَهُ في مسائلِ اللُّغةِ والنَّحوِ والصَّرفِ، ومِنَ الأَماكنِ النَّائيَةِ كانتْ تَأتيهِ الرسائِلُ والأَسئِلةُ فَيُجيبُ عَنها ويبرقُها إِلى أَصحابِها.

وصارَ كعبةَ النَّحوِ في عَصرِهِ، يَطوفُ في فَلكِهِ النُّحاةُ، ويَحجُّ إِلى مَجلسِهِ بُغاةُ التَّفقُّهِ بِاللُّغةِ العربيَّةِ وضُروبِها، حَتَّى قالَ في حَقِّهِ علَّامةُ العربِ والإِسلامِ «ابنُ خَلدونَ» المُؤرِّخُ المَشهورُ: «ما زلنا ونحنُ بِالمغربِ نَسمعُ أَنَّهُ ظهرَ بِمصرَ عالمٌ بِالعربيَّةِ يُقالُ لَهُ (ابنُ هشامٍ) أَنْحَى مِنْ سيبويه».

وقالَ عنهُ في مُناسبَةٍ أُخرَى: «إِنَّ» ابنَ هشامٍ «عَلى علمٍ جَمٍّ، يشهدُ بِعلوِّ قَدرِهِ في صِناعةِ النَّحوِ، وكانَ يَنحو في طريقتِهِ مَنحاةَ أَهلِ المُوصلِ الَّذِيْن اقتَفوا أَثرَ ابنِ جِنيٍّ، واتَّبعوا مصطلحَ تعاليمِهِ، فَأَتَى مِنْ ذَلِكَ بِشَيءٍ عَجيبٍ يَدلُّ عَلى قُوَّةِ مَلكَتِهِ واطِّلاعِهِ».

كما أنَّ الرِّحلةَ الَّتِي قامَ بِها مِنْ مصرَ إِلى بِلادِ الحجازِ، وبِلادِ الشَّامِ، جَعلَتِ العُلماءَ يَتعرَّفونَ عَلى غزارةِ علمِهِ، وسعةِ ثقافَتِهِ عَنْ كَثبٍ، فَأَثبَتوا لَهُ الإِمامَةَ في النَّحوِ في ذَلِكَ العصرِ.

يَقولُ العَلَّامةُ المُحقِّقُ «ابنُ حجرٍ العَسقلانيُّ» في كتابِهِ «الدُّرَرِ الكامنَةِ في أَعيانِ المئةِ الثَّامنةِ»: «لَقَدِ انفردَ (ابنُ هشامٍ) بِالفَوائِدِ الغريبَةِ، والمباحثِ الدَّقيقَةِ، والاستدراكاتِ العجيبةِ، والتَّحقيقِ البالغِ، والاطِّلاعِ المُفرطِ، والاقتدارِ على التَّصرُّفِ بِالكلامِ، والمَلكةِ الَّتِي كانَ يَتمكَّنُ بِها مِنَ التَّعبيرِ عَنْ مَقصودِهِ بِما يُريدُ، مُسهباً وموجزاً، معَ التَّواضعِ والبرِّ، والشَّفقَةِ ودماثَةِ الخُلقِ، ورِقَّةِ القلبِ».

ومِنْ أجلِ هذا مَدَحَهُ الفُضلاءُ والنُّبلاءُ والأَخيارُ وعامَّةُ النَّاسِ، وتَحمَّسَ لِعلمِهِ النُّجباءُ، وأَكبرَهُ الرُّقباءُ والسُّعاةُ، فَهذا المُؤرِّخُ والأَديبُ «صلاحُ الدِّينِ الصَّفديُّ» يَصفُهُ في كتابِهِ «أَعيان العصرِ وأَعوان النَّصرِ» وَصفاً لَمْ يُجمَلْ أَو يُفَصلْ لِغيرِهِ مِنَ الأَعيانِ والعُلماءِ فَيقولُ: «الشَّيخُ الإِمامُ العالمُ العَلَّامةُ حجَّةُ العربِ، أَفضلُ المُتأَخرينَ، جمالُ الدِّينِ أَبو مُحمَّدٍ، شَيخُ النَّحوِ، ومَنْ قامَ في أَمرِهِ بِالإِثباتِ والمَحوِ، وأَظهرَ فيهِ الإِبداعَ وصَنَّفَ، وقرطَ الأَسماعَ وشَنَّفَ، ونَظرَ ودَقَّقَ، وتَعمَّدَ فَتَعمَّقَ وحَقَّقَ، ورَجَّحَ الأَضعفَ، لِذهنِهِ الوقادِ، وأَوهَى الأَقوى مِنَ الأَقوالِ، وسَهلَ المُتعقِّدَ، وكَدَّ وكدحَ، وصَدَّ عَنِ الباطلِ، وأَطربَ لِما صَدحَ، وناقضَ شيخَنا أَثيرَ الدِّينِ، وعدَّلَ بِمذاهبِهِ عَنِ المحجَّةِ، وكادَ يُميتُ ذكرَ أَبي حيَّانَ، فَلو عاصرَهُ سيبويه لَحاكمَ الكسائيَّ إِليهِ، وفَصلَ أَمرَ المَسأَلةِ الذنبوريَّةِ بينَ يديهِ، وفَصَّل فُصولَ كتابِهِ وخَلعَها عليهِ، أَو الفارسيَّ لأَجلبَ عليهِ بِخيلِهِ ورِجلِهِ، أَو ابنَ

جنيٌّ لَما كتمَ سِرَّ الصِناعَةِ مِنْ أَجلِهِ، أَو ابنَ مالكٍ لَكانَ لَهُ مَملوكاً، وجعلَ بِهِ طريقَ التَّسهيلِ لِلنَّاسِ مَسلوكاً، وأَطلَعَهُ الفَهمَ بَعدَ النَّهي عَلى مُشكلاتِ كلامِ العربِ، ولَمْ يَزَلْ بِالقاهرةِ يُصَنِّفُ ويُفيدُ، ويَجودُ لِلطَّلبَةِ بِفوائِدِهِ ويُجيدُ، إِلَى أَنْ نَزَلتْ بِهِ أُمُّ اللهيمِ الأَربيُّ، وفَجعَتْ بِهِ النُّحاةَ والأُدباءَ».

❋ ❋ ❋

كانَ «ابنُ هشامٍ» عالماً موسوعيّاً مَوهوباً ومَطبوعاً عَلى البَحثِ العَميقِ، والتَّحليلِ الدَّقيقِ. وكما قالَ عنهُ أَحدُ النُّقَّادِ المعاصرينَ: «خُتمَتْ بِهِ دولَةُ المُجتهدينَ في النَّحوِ، ومَنْ جاءَ بَعدهُ مِنْ فُحولِ العُلماءِ إِمَّا شارحٌ لِكلامِهِ أَو ناقلٌ عَنهُ وعَنْ غيرِهِ، شاهدٌ لَهُ بِطولِ الباعِ ورُسوخِ الأَقدامِ».

ولَمْ يَكُنْ نبوغُه وَقفاً عَلى علمِ النَّحوِ فَقَطْ، وإِنَّما تَعدَّاهُ إِلى غيرِهِ مِنَ العُلومِ الَّتِي حَصَّلَها وأَتقنَها، مِنْ فقهٍ وحَديثٍ ولِسانياتٍ وعلمٍ بِالأَصواتِ والشِّعرِ وضُروبِهِ، ولَقَدْ وَصلَ إِلى الأَعماقِ مِنْ كُلِّ ما يَمتُّ إِليهِ علمُهُ مِنْ أَدبٍ ولُغةٍ وقِراءاتٍ. وكما قيلَ:

وكانَ مِنَ الفُنونِ بِحيثُ يَقضي لَهُ في كُلِّ فَنٍّ بِالجميعِ

وقَدْ رَبَتْ مُؤلفاتُهُ ومُصنفاتُهُ الَّتِي أَتحفَ بِها مكتبَةَ النَّحوِ العربيِّ وعلمِ القراءاتِ والحديثِ والفقهِ على الثَّلاثينَ ونيِّفٍ ما بينَ كبيرٍ ووَسيطٍ ووَجيزٍ، كانَتْ مِنْ أُمهاتِ المَراجعِ لِلعُلماءِ والطُّلَّابِ عَلى مَرِّ العُصورِ في كُلِّ الآفاقِ والأَصقاعِ، ويُمكنُنا إِجمالُ أَهمِّها:

1 ـ مُغني اللَّبيبِ عَنْ كُتبِ الأَعاريبِ: وجعلَهُ قسمين: الأَوَّلُ أَفرَدهُ للحروفِ والأَدواتِ، وضَعَ وَظائِفَها وطُرقَ استخدامِها مَعَ عرضِ كُلِّ الآراءِ المُتَّصلةِ بِها، والثَّاني تَحدَّثَ فيهِ عَنْ أَحكامِ وخَصائِصِ الأَبوابِ المُتنوِّعةِ وأَحكامِ الجارِ والمَجرورِ وخَصائصِ الأَبوابِ النَّحويَّةِ وصورِ العباراتِ الغريبَةِ.

2 ـ أَوضَحُ المَسالِكِ إِلى أَلفيَّةِ ابنِ مالِكٍ: وهوَ شَرحٌ لأَلفيَّةِ ابنِ مالكٍ الطَّائيِّ.

3 ـ شُذورُ الذَّهبِ في مَعرفَةِ كلامِ العربِ: وهوَ مِنْ أَشهرِ مُؤلفاتِه ومِنْ أَكثرها تَداولاً.

4 ـ قَطرُ النَّدى وبَلُّ الصَدَى: وهوَ كتابٌ مُختصرٌ في علمِ النَّحوِ.

5 ـ الإِعرابُ عَنْ قَواعدِ الأَعرابِ: وهوَ في النَّحوِ ومذاهبِ العربِ في الإِعرابِ.

6 ـ ولَهُ في علمِ القراءاتِ: رسالة في استعمالِ المُنادَى في القُرآنِ الكريمِ، وكتابُ التَّذكرةِ؛ ذكرَ السُّيوطيُّ أَنَّهُ في خمسة عشرَ مُجلَّداً.

7 ـ ولَهُ في علمِ الحديثِ: شرحُ الجامعِ الصَّغيرِ والكبيرِ.

8 ـ ولَهُ مِنَ الشُّروحِ: شَرحُ البُردةِ، وهيَ قَصيدةُ «بانَتْ سعادُ» لكعبِ بنِ زُهيرٍ، وسُمِّيَتْ بِالبُردةِ لأَنَّ النَّبيَّ ﷺ خَلعَ بُردتَهُ عَلى كعبِ بنِ زُهيرٍ لَمَّا أَنشدَها.

ولَهُ أَيضاً شَرحُ القصيدةِ اللُّغزيَّةِ في المسائِلِ النَّحويَّةِ، وشَرحُ كتابِ الشَّذا في مَسألَةِ كذا لأَبي حيانَ الأَندلسيِّ.

❋ ❋ ❋

كَما كانَ ابنُ هشامٍ فَقيهاً مُقلِّداً لِمذهبَي الإِمامِ الشَّافعيِّ، ومَذهبِ الإِمامِ أَحمدَ بنِ

حنبلٍ، وكانَ في البِدايَةِ مُقلِّداً لِلمذهبِ الشَّافعيِّ، ثُمَّ في آخرِ حياتِهِ تَحوَّلَ إلى المذهبِ الحنبليِّ، وقَدْ حفظَ مُختصَرَ الخرقيِّ في الفِقهِ الحنبليِّ، ولَمَّا زارَ الدِّيارَ المُقدَّسةَ أفتَى ودرَّسَ أُصولَ المذهبِ طِوالَ إقامتِهِ في مكَّةَ.

تُوفي في لَيلَةِ الجُمعةِ خامسَ ذي القِعدةِ سنةَ (761) هجريَّةً، ورَثاهُ الخَطيبُ «ابنُ نباتَةَ» عندَ موتِهِ فقالَ:

سَقَى ابنُ هشامٍ في الثَّرَى نَوءَ رَحمةٍ ... يَجرُّ عَلى مَثواهُ ذيلَ الغَمامِ

سَأَروي لَهُ مِنْ سيرةِ المدحِ سيرةً ... فَما زلتُ أَروي سيرةَ ابنِ هشامِ

ورثاهُ ابنُ الصَّاحبِ بَدرُ الدِّينِ فَقالَ:

تَهنَّ جمالَ الدِّينِ بِالخُلدِ إنَّني ... لِفقدِكَ عيشي ترحةٌ ونكالُ

فَما لِلدُّروسِ غبتَ عَنها طلاوةٌ ... ولا لِزمانٍ لستَ فيهِ جَمالُ

الأَسْئِلَةُ وَالْمُنَاقَشَةُ

1 ـ ماذا كانَ ابنُ هشام يَتوخَّى بروحِهِ العلميَّةِ؟

2 ـ بِماذا كانَ يتمتَّعُ ابنُ هشامٍ؟

3 ـ إِلى مَنْ يرجع نسب ابنِ هشامٍ، وما اسمُهُ الحقيقيُّ؟

4 ـ أين ولدَ ابنُ هشامٍ، وكيفَ نشأ؟

5 ـ ماذا استطاعَ أَنْ يُحقِّقَ «ابنُ هشامٍ» بِجَدِّهِ ومُثابَرتِهِ؟

6 ـ ماذا قالَ عن ابنِ هشامٍ أَحدُ النُّقَّادِ المعاصرينَ؟

7 ـ هلْ تفوَّقَ ابنُ هشامٍ في علمِ النحو فقط؟ وضِّحْ ذلكَ.

8 ـ ما هيَ المذاهبُ الفقهيَّةُ الَّتِي قَلَّدَها ابنُ هشامٍ، وماذا حفظَ؟

المحتوى

أبو الأَسود الدُّؤليُّ واضع علم النحو 5
سيبويه الحارثيُّ مؤسِّس علم النحو 17
أَبو حمزةَ الكِسائيُّ إِمامُ نُحاةِ الكوفةِ 29
أَبو زكرياءِ الفرَّاءُ أميرُ علم النَّحو 41
أبو العباس المُبرِّد شيخ النُّحاة 53
أَبو العبَّاس ثَعلب صاحبُ العلمِ المستطيل 65
أَبو إسحاق الزَّجَّاج مُعلِّمُ علمِ النَّحو 77
ابنُ كيسان زعيم المدرسة البغدادية 89
ابنُ مالك الطائيُّ شارحُ علمِ النحو 101
ابن هشام الأَنصاريُّ حجَّةُ العَربِ 115
المحتوى 127